أخلاقنا

إعداد

الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

إشراف وتقديم

أ. د. محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣ م

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد بهي الدين

أخلاقنا

إشراف وتقديم

أ. د. محمد مختار جمعة

الطبعة الأولى

للهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٣م.

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل ـ رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي : ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة، بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

[يوسف: ٦٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين، وعلى خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد:

فرسالة نبينا محمد ﷺ قائمة على مكارم الأخلاق، حيث يقول ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» (السنن الكبرى للبيهقي).

والمتأمل في حياة نبينا ﷺ يجد أنها كانت تطبيقًا عمليًّا لأخلاق القرآن الكريم وقِيَمه السامية التي تتسق والفطرة الإنسانية السوية، فحينما سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه ﷺ، قالت: «كان خُلُقُهُ القُرْآنَ» (مسند أحمد)، فكان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض.

ومن المعلوم أن القيم الأخلاقية والإنسانية من الثوابت المشـتركة بين الشرائع السماوية، وقد ذكر القرآن الكريم في سـورة الأنعام عدة وصايا أخلاقية قـال عنها عبد الله ابن عباس ﷺ: إنها من الآيات المحكمات التي لم تُنسَخ في أي شريعـة من الشرائع، حيث يقـول الحقُّ ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[سورة الأنعام، الآيات ١٥١ - ١٥٣]، فمـن خرج عن هـذه القيم والأخلاق خـرج عن مقتضى الفطرة السوية والشرائع السماوية .

وفي إطـار خطة وزارة الأوقـاف لتقديم خطاب ديني عـصري رشـيد مسـتنير، يسرُّنا أن نقـدم للسـادة الأئمة والخطبـاء والمثقفـين والمعنيـين بالشـأن الدعـوي في مـصر والعالم كتـاب «أخلاقنـا»، الذي تناول عـددًا من الموضوعات المهمة، منها: الأخلاق أساس الحضارات الراقيـة، مـكارم الأخـلاق في الرسـالة المحمدية، يقظة الضمير، الحلم والأناة، الشـهامة والمـروءة والتضحية، العدل وأثره في اسـتقرار المجتمع، حفظ الجميل، وغير ذلك من القيم الأخلاقية والإنسانية .

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل

أ.د. محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

الأخلاق أساس الحضارات الراقية

مما لا شك فيه أن مكارم الأخلاق من القواسم المشتركة بين جميع الشرائع السماوية، يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[1]، فالأخلاق أصل من أصول الدين، تتطلبها الحياة في كل زمان ومكان، ولا يمكن الاستغناء عنها، وهي غاية العبادات، ومصدر من مصادر سعادة الإنسان، على أن الحضارات التي لا تقوم على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل قيامها وأساس بنيانها.

وبكريم الأخلاق أثنى الحقُّ ﷻ على أنبيائه ورسله عليهم السلام، فقال ﷻ في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[2]،

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ، حديث رقم: ٦١٢٠.
(٢) [سورة النجم، الآية ٣٧].

وفي شأن إسماعيل عليه السلام قال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[1]، فقد وصفه بصدق الوعد وقدَّمه على النبوة والرسالة، ثم جمع ﷻ الأمر كله لنبينا ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[2]، وهذا ما قرَّره رسول الله ﷺ، حيث لخَّص الهدفَ من رسالته، فقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[3].

والمتأمل في حياة بعض الناس اليوم يجد أنهم قد ابتعدوا عن المنهج الصحيح للإسلام، واختزلوا الشريعة الإسلامية في مجرد الأحكام التعبُّدية فقط؛ لذلك ضلُّوا الطريق، ومِن ثَمَّ وجدنا كثيرًا من الأزمات الأخلاقية، فرأينا مَن يَعُقُّ أباه أو يؤذي أمه، ورأينا من يأخذ أكثر من حقه ولا يؤدي ما عليه من واجب، ورأينا مَن يدَّعي الإيمان ثم يقتل، ويدمِّر، ويفجِّر وهو مؤدٍّ للشعائر، محافظ عليها

(١) [سورة مريم، الآية ٥٤].
(٢) [سورة القلم، الآية ٤].
(٣) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الشهادات، بابُ بَيانِ مَكارِمِ الأخلاقِ ومَعاليها التي مَن كان مُتَخَلِّقًا بها، حديث رقم: ٢٠٨١٩.

أشد المحافظة، ولله در القائل: «إن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلَّهم على ما فعلوا»[1].

وقد ربط الإسلام بين الشريعة والأخلاق الحميدة والعبادات والآداب الرفيعة، والمتأمل في النصوص الشرعية يجد أن من حكمة مشروعية العبادات في الإسلام تهذيب سلوك الفرد وتزكية أخلاقه؛ لينعكس ذلك على تصرفاته وأفعاله وسائر أحواله، ومِن ثَمَّ على مجتمعه، فيبني مجتمعًا متحضرًا يتمتع بالتخلق بمكارم الأخلاق.

إن العبادات لا بُدَّ وأن تترك أثرًا أخلاقيًّا في سلوك صاحبها، فهي ليست طقوسًا جوفاء؛ بل شُرِعت لترتقي بالإنسان، وتسمو بأخلاقه، ففريضة الصلاة التي تمثل أسمى علاقة تربط العبد بربه، قال الله تعالى عنها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر،١/ ٥٤٥، أثر رقم: ٩٠٥، ط دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية،١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

﴿أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1]، وأكد النبي ﷺ على هذا المعنى بقوله: «مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»[2].

وكذلك الزكاة بمفهومها العام والشامل، قال الله تعالى عنها: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3]، فهي ليست مفروضة لتؤخذ من الأغنياء فحسب؛ بل فُرِضت لتزكية الأنفس وتطهيرها، ولغرس مشاعر الرأفة وتوطيد علاقات الألفة والمحبة بين الناس، وكلها معانٍ أخلاقية في المقام الأول تُبنَى عليها الحضارات، ومن أجل ذلك وسَّع النبي ﷺ في دلالة الصدقة حيث قال: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ

(١) [سورة العنكبوت، الآية ٤٥].
(٢) شعب الإيمان للبيهقي، الحادي والعشرون من شعب الإيمان (الصلاة)، حديث رقم: ٢٩٩٤.
(٣) [سورة التوبة، الآية ١٠٣].

لَـكَ صَدَقَـةٌ، وَإِفْرَاغُـكَ مِـنْ دَلْـوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيـكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[1]، وأما الصيـام فهو يقوي عزيمة المؤمن فينتصر على نفسـه وشـهواته، وهذه هي التقوى التي جعلها الله تعالى غاية الصوم، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[2]، ويقـول ﷺ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ، فَإِنْ سَـابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»[3].

وكذلـك الحج إنمـا فرضه الله تعـالى لتهذيب النفوس بمـكارم الأخـلاق، قال تعـالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[4]، وقـال ﷺ:

(١) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، حديث رقم: ١٩٥٦.
(٢) [سورة البقرة، الآية ١٨٣].
(٣) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الصوم، بَابٌ هَلْ يَقُولُ: إِنِّي صَائِمٌ إِذَا شُتِمَ، حديث رقم: ١٩٠٤، واللفظ له، وصحيح مسلم كتاب الصيام، باب فضل الصيام، حديث رقم: ١١٥١.
(٤) [سورة البقرة، الآية ١٩٧].

«مَـنْ أَتَى هَذَا الْبَيْـتَ، فَلَمْ يَرْفُـثْ، وَلَمْ يَفْسُـقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

فالعبادة إذا لم تؤثِّر في خُلُق الإنسان وتهذِّب سلوكَهُ فلا قيمة لها ولا ثمرة لها في الآخرة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِـسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِـي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَـامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَـتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَـنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَـتْ عَلَيْهِ، ثُـمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[2]، ولما سُـئل ﷺ: يَا رَسُـولَ الله، إِنَّ فُلَانَـةَ يُذْكَرُ مِنْ كَـثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَـانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا،

(١) متفـق عليه، صحيـح البخاري، أبواب المحصر، بَابُ قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [سـورة البقـرة، الآيـة ١٩٧]، حديـث رقم: ١٨١٩، وصحيح مسـلم، كتاب الحج، بَـابٌ فِي فَضْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَيَوْمِ عَرَفَةَ، حديث رقم: ١٣٥٠، واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨١.

وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ»[1].

ولقد عُني الإسلام بالأخلاق عناية بالغة، فجعل حُسْنَ الخُلق أثقلَ ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة، حيث يقول ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»[2]، كما أنه يرفع درجة صاحبه حتى يتساوى مع درجة قائم الليل وصائم النهار، قال ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[3]، إضافة إلى أن صاحب الخُلق الحسن يجاور رسولَ الله ﷺ في الجنة، يقول ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «المُتَكَبِّرُونَ»[4].

(١) مسند أحمد، ١٥/ ٤٢١، حديث رقم: ٩٦٧٥.
(٢) مسند أحمد، ٤ / ٢٥٣، حديث رقم: ٤٧٩٩ .
(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في حُسْنِ الخُلُقِ، حديث رقم: ٤٨٠٠ .
(٤)) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، حديث رقم: ٢٠١٨.

وقد كان النبي ﷺ أنموذجًا عمليًّا للأخلاق الحسنة، فقد كان أحسنَ الناس خُلقًا، وأكثرَهم رحمةً ورأفةً، وحلمًا وعفوًا، وأصدقَهم حديثًا، وأوفاهم عهدًا وذمةً، وأكرمهم عِشرةً، مدحه رب العزة ﷻ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، ووصفه أنس رضي الله عنه بأنه ﷺ «أَحْسَن النَّاس خُلُقًا»[2]، ولما سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلقه ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[3].

وعلى منهج رسول الله ﷺ سار الصحب الكرام (رضوان الله عليهم)، فكانوا بهذه الأخلاق سادةَ الأمم، ومحطَّ الأنظار، وموضعَ القدوة لتمسكهم بالأخلاق السامية؛ لذا كان الناس يدخلون في دين الله أفواجًا؛ لِمَا يرون من حُسْن معاملتهم وجميل أخلاقهم، وحين بدأ الانحراف عن هذا المنهج القويم وساءت أخلاق الناس؛ ضاعت القيم، وفُقدت القدوة، وتبدلت المفاهيم،

(١) [سورة القلم، الآية ٤].
(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ جَوَازِ الْجَمَاعَةِ فِي النَّافِلَةِ، وَالصَّلاَةِ عَلَى حَصِيرٍ وَخُمْرَةٍ وَثَوْبٍ، وَغَيْرِهَا مِنَ الطَّاهِرَاتِ، حديث رقم: ٦٥٩.
(٣) مسند أحمد، ٤١/ ١٤٨، حديث رقم: ٢٤٦٠١.

وصـدق الإمام مالك حين قـال: «ولن يُصلـح آخرَ هذه الأمـة إلا بمـا صلح بـه أولُهـا»[1]، فبالأخـلاق الفاضلة تحيـا الأمم، وتنهـض وتبقى آثارها خالـدة، فهي صمام أمـان للمجتمعات مـن الانحلال، تصونهـا من الفوضى والضياع، فسلامة الأمة وقوة بنيانها، وسمو مكانتها وعزة أبنائها بتمسـكها بالأخلاق الفاضلة، وبزوالها تنهارُ الأممُ وتسقطُ، ولله درُّ القائل[2]:

إِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

إن أهم ما تميزت به الأخلاق في الإسلام أنها لا تتجزأ، فـلا تفرقة فيها على أسـاس الديـن أو اللـون أو العرق أو الجنس، وبهذا قامت الحضارة الإسلامية، قال الله تعالى في التعامل مع الوالدَيْـن المشركَيْن: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]، ورسولُ الله ﷺ كان لا

(١) المدخل لابن الحاج المالكي، ١/ ٢٦٢، ط دار التراث.
(٢) ديوان أحمد شوقي (الشوقيات)، قصيدة: صحوت واستدركتني شيمتي الأدب . ١/ ٢١٧.
(٣) [سورة لقمان، الآية ١٥].

يفرق في معاملته بين المسلم وغيره، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

إن الحضارات الراقية لا تقوم إلا على الأخلاق، فهي من أُسس تحضُّر الأمم، ورقيِّها، فتَقَدُّم كل أمة أو انحدارها يرجع إلى مدى تمسكها بالقيم النبيلة والأخلاق الحميدة، ومن ثمَّ فإن الجانب الأخلاقي هو أهم مرتكزات الحضارة الإسلامية، فمفهوم الحضارة لا يتحقق لمجتمعٍ يشهد غياب القيم، فإذا انعدمت الأخلاق سقط المجتمع وانهارت الأمة، وقد أكد القرآن الكريم على ذلك، حيث إنه ذكر لنا نماذج لأمم وحضارات سابقة انهارت بسبب فساد أخلاقها؛ مثل: قوم لوط، وقوم ثمود، وقوم شعيب، وغيرهم.

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّ عَلَيْهِ؟ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ؟ حديث رقم: ١٣٥٦.

فإذا أردنا أن نرتقي بأخلاقنا ومجتمعنا وحضارتنا فلا بُدَّ من الاقتداء بالقدوة الحسنة، فهي عاملٌ رئيسٌ في تكوين الأخلاق، ونبيُّنا الكريم ﷺ خيرُ مَن نَقتدي به في الأخلاق الحسنة وكل مناحي الحياة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

* * *

(١) [سورة الأحزاب، الآية ٢١].

مكارم الأخلاق في الرسالة المحمدية

إن الدعوة إلى مكارم الأخلاق من القواسم المشتركة بين جميع الشرائع السماوية، فحيثما وُجدت الأخلاق وُجد الفهم الصحيح للإسلام، وها هو نبينا محمد ﷺ قد ختم الله ﷻ به الرسالات السابقة، ليجمع مكارم الأخلاق ويتممها، حيث يقول ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، ويقول ﷺ عن نفسه: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[3]، والمتأمل في حياة نبينا ﷺ يجد أنها كانت تطبيقًا عمليًّا لأخلاق القرآن الكريم وقِيَمه السامية، التي تتسق والفطرة الإنسانية السوية، فحينما

(١) [سورة الأنعام، الآية ٩٠].

(٢) [سورة القلم، الآية ٤].

(٣) السنن الكبرى للبيهقي، جماع أبواب من تجوز شهادته، ومن لا تجوز من الأحرار البالغين العاقلين المسلمين، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، حديث رقم: ٢٠٧٨٢.

سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه ﷺ، قالت: «كان خُلُقُه القُرآنَ»[1] فكان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض.

إنَّ الأخلاق الفاضلة من أهم ركائز قيام الدول والحضارات، واستقرارُ الدول ودوامُها يعود إلى مدى تمسُّكها بالقيم النبيلة والأخلاق الحميدة، وقد خلَّد التاريخُ بحروفٍ من نورٍ النجاشيَّ ملكَ الحبشة، الذي اشتهر بالعدل ومكارمِ الأخلاق، فحينما اشتد أذى المشركين لنبينا ﷺ وأصحابه، أشار عليهم ﷺ أن يهاجروا إلى الحبشة؛ لعلمه أن مَلِكَها صاحب أخلاق راقية، ومبادئ قويمة، حيث يقول ﷺ: «إِنَّ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا، وَمَخْرَجًا»[2].

إنَّ الأمم والحضارات لا يمكن أن تُبنَى بناءً سديدًا إلا إذا اعتمدت في أسس بنائها على مكارم الأخلاق؛ فلا تتقدم أمة بدون الصدق والأمانة، ولا يستقيم بنيانها بدون

(١) مسند أحمد، ٤١/ ١٤٨، حديث رقم: ٢٤٦٠١.
(٢) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة، حديث رقم: ١٧٧٣٤.

الانضباط السلوكي، ولا تقوى بدون الإعداد، والشجاعة، ولا تتآلف بدون التآخي، والتكاتف، فالأمة الواحدة تشبه الجسد الواحد الذي يتعاون أعضاؤه على خدمته، وسلامته، ولا يكتمل الإيمان إلا باكتمال التحابِّ، والتآلف، والتعاون، حيث يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾[1].

ويقول نبينا ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[2]، ويقول ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[3].

إن التحلي بمكارم الأخلاق صمام أمان للمجتمعات من الانحلال والفوضى والضياع، وبزوالها تسقط الأمم،

(١) [سورة المائدة، الآية ٢].

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ، حديث رقم: ٦٠١١، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٢٥٨٦. واللفظ له.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، حديث رقم: ١٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ، حديث رقم ٤٥ .

فكم من حضارات انهارت بتردي أخلاقها، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج لأمم هلكت بسبب بُعْدها عن الأخلاق، حيث يقول ﷻ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2]، ويقول عليه السلام: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3].

والمتأمل في جوهر الحضارة الإسلامية يجدها حضارة قيم وأخلاق، حيث يقول نبينا ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ

(١) [سورة الذاريات، الآية ٤٦].
(٢) [سورة فصلت، الآية ١٥].
(٣) [سورة العنكبوت، الآيات ٢٨ - ٣٠].

بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُه»[1]، ويقول ﷺ: «إِنَّ الْفُحْشَ، وَالتَّفَحُّشَ لَيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلَامًا، أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[2].

إن من وُجوه العظمة في الدين الإسلامي شموليته لجميع جوانب الحياة، وهو دين شريعة وأخلاق، يجمع بين القيم والمثل الإنسانية الرائعة، التي تجسِّد الصورة المثلى للأخلاق الفاضلة، فلم يترك فضيلةً من الفضائل إلا دعا إليها وحثَّ على التمسُّك بها، ولم يَدَعْ في الوقت نفسه أيَّ رذيلة من الرذائل إلا نبَّه عليها وأمر بالابتعاد عنها.

ومن الفضائل التي دعا إليها ورغَّب فيها وحث على التخلُّق بها: التحلِّي بمكارم الأخلاق، كالصبر والحلم، والصدق والأمانة، والرحمة والوفاء، والكرم والحياء، والتواضع والشجاعة، والعدل والإحسان، وقضاء

(١) سنن أبي داود، كِتَاب الْأَدَبِ، بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، حديث رقم: ٤٨٠٠.
(٢) مسند أحمد، ٣٤/ ٤٢٢، حديث رقم: ٢٠٨٣١.

الحوائج وكف الأذى، وطلاقة الوجه وطيب الكلام، والجود والإيثار، وغيرها من مكارم الأخلاق، وهذا ما يشير إليه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1].

وقد وردت بذلك نصوص الكتاب والسنة، ومن ذلك قوله ﷺ آمرًا رسوله ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[4].

إن مَن تأمَّل آيات القرآن، ظهرت له آيات كثيرة تدعو إلى مكارم الأخلاق، ووجوب التحلِّي بها، وما ذلك إلا

(١) [سورة الإسراء، الآية ٩].
(٢) [سورة الأعراف، الآية ١٩٩].
(٣) [سورة البقرة، الآية ٨٣].
(٤) [سورة النساء، الآية ١١٤].

لكون الأخـلاق ميزانًا شرعيًّا يهذِّب الإنسـان، ويرقى به إلى مدارج الكمال.

كما أكَّدت نصوص السنة النبوية المطهرة على أهمية الأخلاق في حياة الإنسان، مبينةً الأجرَ العظيم لمن تخلَّق بالأخـلاق الفاضلـة، ومن ذلك قولـه ﷺ: «الْبِرُّ حُسْـنُ الْخُلُقِ»[1]، والبرُّ: اسـمٌ جامعٌ لأنـواع الخير، وقوله ﷺ: «مَـا شَيْءٌ أَثْقَـلُ فِي مِيـزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَـةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ»[2].

ولقـد كان ﷺ كثيرًا مـا يحثُّ على مـكارم الأخلاق ويرغِّب فيها، يقول ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَـنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَـائِكُمْ»[3]، ولما سُـئل رسول اللـه ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدخل الناسَ الجنةَ، قَالَ: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ»[4]، ثم جعل النبيُّ ﷺ مكارمَ الأخلاق من

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم: ٢٥٥٣.
(٢) سنن الترمذي، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، حديث رقم: ٢٠٠٢.
(٣) مسند أحمد، ١٦/ ١١٤، حديث رقم: ١٠١٠٦.
(٤) سنن الترمذي، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، حديث رقم: ٢٠٠٤.

أسباب محبته، فقال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا»[1].

وللأخلاق في الإسلام مكانة كبيرة؛ بل إن النبي ﷺ أولاها عناية فائقة، حيث أعلن ﷺ أن الغاية الأولى من بعثته ورسالته إنما هي إتمام مكارم الأخلاق، قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بِتَمَامِ مكارِمِ الْأَخْلَاقِ، وكَمَالِ مَحَاسِنِ الْأَفْعَالِ»[2]، وحتى قبل الرسالة كان الناسُ يُسمُّونَه بالصادق الأمين، إنها الأخلاق الإسلامية الكريمة المقرونة بالإيمان الصادق، فكان ﷺ مثلاً أعلى في حُسْن الخلق، فقد كان ﷺ أجمع الخَلْق خُلُقًا؛ لأنه كان أجمعهم للقرآن الكريم، يمتثلُ أوامرَه، ويجتنبُ نواهيه، فاجتمعت فيه الفضائلُ كلُّها.

كان ﷺ نموذجًا عمليًّا في امتثال الأخلاق القرآنية، فقد كان أحسن الناس خلقًا، وأكثرهم محبةً، ورأفةً ورحمةً، وحلمًا وعفوًا، وأصدقهم حديثًا، وأوفاهم عهدًا

(١) سنن الترمذي، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَعَالِي الْأَخْلَاقِ، حديث رقم: ٢٠١٨.
(٢) المعجم الأوسط للطبراني، ٧/ ٧٤، حديث رقم: ٦٨٩٥.

وذمةً، وأكرمهم عِشرةً، كان مضربَ المثل في تواضعه مع أنه سيد البشر، من رآه هابه، ومن خالطه أحبه، وَصَفَتْهُ أُمُّ المؤمنين خديجة ﵂ فقالت: «فَوَالله إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[1]، ووصفه ربه تعالى بقوله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2]، بمثل هذه الأخلاق استطاع ﷺ أن يملك القلوب والعقول.

ولقد ربَّى النبي ﷺ أصحابه على مكارم الأخلاق، وأمرهم أن يتزينوا بها ويتمسكوا بأحسنها، حين قال لأبي ذر ﵁: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[3]، فتعلموا الرفق

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [سورة الضحى، الآية ٣]، حديث رقم: ٤٩٥٣. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٢٥٢.

(٢) [سورة آل عمران، الآية ١٥٩].

(٣) سنن الترمذي، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي مُعَاشَرَةِ النَّاسِ، حديث رقم: ١٩٨٧.

والعفـو والإحسـان، وتخلصـوا من العصبيـة والغضب بالحلـم والصفح، وضربوا أروع الأمثلة في جمالِ الخلق وحسـن المعاملة والعطاء أفـرادًا وجماعاتٍ، فلما هاجر الرسـول من مكة المكرمـة إلى المدينة المنـورة، وآخى بـين المهاجريـن والأنصار، كان الأنصاري يشـاطر أخاه المهاجر بنصف ماله، فالأخلاق الإنسـانية تقوم على مبدأ العطاء، وقد أطلعَنا القرآنُ الكريمُ على نماذج رائعة ليست مقصـورة على أفراد معينة؛ بل أصبحت صفة للمسـلمين عامة، قال تعـالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

إن الأخـلاق الفاضلـة هي التي تعصـم المجتمعات مـن الانحلال، وتصونها من الفوضى والضياع، فسـلامة الأمة وقوة بنيانها، وسـمو مكانتها وعزة أبنائها، بتمسُّكها بالأخـلاق الفاضلـة، كما أن شـيوع الانحـلال والرذيلة نتيجة لنبذ الأخلاق والأفعال الحميدة، ولله در القائل[2]:

(١) [سورة الحشر، الآية ٩].
(٢) ديوان أحمد شوقي (الشوقيات) ١/ ١٩٧، ط دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

صَلاحُ أَمرِكَ لِلأَخلاقِ مَرجِعُهُ فَقَوِّمِ النَفسَ بِالأَخلاقِ تَستَقِمِ
وَالنَفسُ مِن خَيرِها في خَيرِ عافِيَةٍ وَالنَفسُ مِن شَرِّها في مَرتَعٍ وَخِمِ

لـذا كان التحذير من انهيار الأخلاق وتردِّيها، فعَنْ سَـهْلِ ابْنِ سَـعْدٍ السَّـاعديِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَـمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ كَرِيـمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَيُحِبُّ مَعَـالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»[1]، والسَّفْسَافُ: الْأَمْرُ الْحَقِيرُ، وَالرَّدِيءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ضِدُّ الْمَعَالِي وَالْمَكَارِمِ[2].

فبالأخـلاق تحيا الأمم وتبقـى، وبزوالهـا وانهيارها تنهار الأمم وتسقط، فكم من حضارات انهارت، لا بسبب اقتصادها، أو قوتها العسكرية، وإنما بتردي أخلاقها.

وإذا تأملنـا العبادات في القرآن والسـنة وجدنا أن من أهم مقاصدها: تهذيب سلوك المسلم وتزكية أخلاقه، فما من عبادة شرعها الإسـلام من صلاة وصيام وزكاة وحج إلا ولها أثر يظهر على سـلوك الفرد في السمو الأخلاقي؛ بل يتعدى هذا الأثر من الفرد إلى المجتمع، فإن الإسـلام

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كِتَابُ الْإِيمَانِ، حديث رقم: ٢٥٢.
(٢) التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني، ٣/ ٢٩٦، ط مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

ليس طقوسًا جوفاء تؤدى في المسجد ولا علاقة لها بالواقع، فيخرج المصلي بعدها ليغش ويحتكر، ويؤذي جاره، وإنما شُرعت العبادات لترتقي بالإنسان، وتسمو بأخلاقه، ففريضة الصلاة أبان الله تعالى الحكمة من إقامتها، فقال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[1]، فالابتعاد عن الرذائل، والتطهر من سوء القول والعمل، هو حقيقة الصلاة، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي، وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي، وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي، وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ، وَابن السَّبِيلِ وَالأَرْمَلَةَ، وَرَحِمَ الْمُصَابَ»[2]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلاَتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلاَّ بُعْدًا»[3]،

(١) [سورة العنكبوت، الآية ٤٥].
(٢) مسند البزار، ١١/ ١٠٥، حديث رقم: ٤٨٢٣.
(٣) المعجم الكبير للطبراني، ٩/ ١٠٣، حديث رقم: ٨٥٤٣.

فالذي لا تأمره صلاته بالمعروف من القول والعمل، فإن صلاته لم تُحقق مقصدًا من أهم مقاصدها.

وكذلك الزكاة، والصيام، والحج، وسائر العبادات كلها، إنما شُرعت للتقرب إلى الله وحده ولتزكية النفس، والارتقاء بها إلى مكارم الأخلاق، فقال تعالى عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، ومن أجل ذلك وسَّع النبي ﷺ في دلالة كلمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[2].

(١) [سورة التوبة، الآية ١٠٣].
(٢) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، حديث رقم: ١٩٥٦.

وفريضة الصوم عبادة من العبادات التي فرضها الله على عباده من أجل تحقيق التقوى، فالثمرة والغاية التي يريدها ربنا ﷻ من الصيام هي تقوى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1]، فمن خلال الصيام تتقوى إرادة المسلم، ويتعود على ضبط أخلاقه وشهواته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ- مَرَّتَيْنِ»[2]، أي: ينبغي أن يعصمه صومه عن الأخلاق السيئة وعن الرذائل.

وقال تعالى عن فريضة الحج: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[3]، وعَنْ أَبِي

(١) [سورة البقرة، الآية ١٨٣].
(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كِتَابُ الصَّوْمِ، بَابُ فَضْلِ الصَّوْمِ، حديث رقم: ١٨٩٤، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الصيام، بَابُ حِفْظِ اللِّسَانِ لِلصَّائِمِ، حديث رقم ١١٥١.
(٣) [سورة البقرة، الآية ١٩٧].

هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

فالعبادة لا بُدَّ وأن تترك أثرًا إيجابيًّا يعود على الفرد والمجتمع، فإذا لم تؤثِّر هذه العبادة في خُلُق الإنسان وتهذيب سلوكه فلا شك أن فيها قصورًا، وتُذهب قيمتها في الآخرة؛ لأن سوء الخُلُق يأكل تلك العبادات وتلك الحسنات كما تأكل النارُ الحطبَ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[2]، ولما سُئل ﷺ: يَا رَسُولَ الله،

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الحج، بَابُ قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٩٧]، حديث رقم: ١٨١٩، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، حديث رقم: ١٣٥٠. واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨١.

إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ»[1].

إن مكارم الأخلاق تشمل كافة الأعراق والأديان، فلا فرق بين مسلم وغيره، إنما الجميع أخوة في الإنسانية، فالحقُّ ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2]، ولما قام النَّبيُّ ﷺ لجنازة مَرَّتْ به، وَقيلَ لَهُ: إِنَّهَا جنَازَةُ يَهُودِيٍّ، قَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟»[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[4]، وعَنْ

(١) مسند أحمد، ١٥/ ٤٢١، حديث رقم: ٩٦٧٥.
(٢) [سورة الإسراء، الآية ٧٠].
(٣) صحيح البخاري، كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ مَنْ قَامَ لِجَنَازَةِ يَهُودِيٍّ، حديث رقم: ١٣١٢.
(٤) [سورة العنكبوت، الآية ٤٦].

مُجَاهد، أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرو ﷺ ذُبِحَتْ لَهُ شَـاةٌ فِي أَهْلِه، فَلَمَّا جَاءَ قَـالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا اليَهُـودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟، سَـمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[1].

ولم تقتـصر مـكارم الأخلاق على البشر فحسـب؛ بل إن دائـرة الأخلاق تشـمل الحيـوان أيضًا، فـإن الله أدخل رجلًا الجنة بسـبب كلب سـقاه، فعَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِـيِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُـلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الـثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّـهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِه حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَـكَرَ الله لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ»[2]، وفي المقابل أدخل اللهُ امرأةً النارَ بسـبب هرَّة، قال ﷺ: «عُذِّبَت امْرَأَةٌ فِي هِرَّة حَبَسَـتْهَا حَتَّى مَاتَـتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَـا النَّارَ»، قَالَ: لاَ أَنْـت أَطْعَمْتِهَا وَلاَ سَـقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْـتِيهَا، وَلاَ أَنْتِ أَرْسَـلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»[3].

(١) سنن الترمذي، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حَقِّ الجِوَارِ، حديث رقم: ١٩٤٣، وأصله متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ الوَصَاةِ بِالجَارِ، حديث رقم: ٦٠١٥ . وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم: ٢٦٢٥.
(٢) صحيح البخاري، كِتَابُ الوُضُوءِ، بَابُ المَاءِ الَّذِي يُغْسَلُ بِهِ شَعَرُ الإِنْسَانِ، حديث رقم: ١٧٣.
(٣) صحيح البخاري، كِتَاب المَسَاقَاةِ، بَابُ فَضْلِ سَقْيِ المَاءِ، حديث رقم: ٢٣٦٥.

إذا أردنا أن نرتقي بأخلاقنا ومجتمعنا فلا بُدَّ من الاقتداء بالقدوة الحسنة، فالقدوة عامل أساسيّ في تكوين الأخلاق، ورسول الله ﷺ هو القدوة الأول والأعظم في الإسلام، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1]، والوالد قدوة لولده، ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن المولود يولد على الفطرة النقية، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ثم تأتي القدوة فتغير فيه إلى الأحسن، أو إلى الأسوأ، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه، وَيُنَصِّرَانِه، أَوْ يُمَجِّسَانِه، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحَسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

(١) [سورة الأحزاب، الآية ٢١].
(٢) [سورة الروم، الآية ٣٠]. والحديث في صحيح البخاري، كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ؟ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ؟ حديث رقم: ١٣٥٩.

وكذلك المعلم قدوة لتلاميذه بصلاحه وأخلاقه، يتخلَّق الطلاب بخلقه ويقتدون به، فقد دخل الشافعي يومًا إلى هارون الرشيد، ومعه سراجٌ الخادم، فأقعده عند أبي عبد الصمد مؤدِّب أولاد الرشيد، فقال سراجٌ للشافعي: يا أبا عبد الله! هؤلاء أولاد أمير المؤمنين، وهو مؤدبهم، فلو أوصيته بهم، فأقبل الشافعي على أبي عبد الصمد، فقال له: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تركته...»[1].

ومن الأمور التي تساعد العبد على حُسْن الخلق: الإخلاص لله تعالى، ثم الدعاء بِحُسْنِ الخلق، ثم مجاهدة النفس وشهواتها، ثم محاسبة النفس دائمًا، مع النظر إلى مآلات سوء الخلق وما يجره على الفرد والمجتمع من مفاسد.

* * *

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٩ / ١٤٧ .

يقظة الضمير

لقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالضمير الإنساني وأعلى مكانته في نفوس المسلمين؛ لأنه هو المحرك الأساسي لجميع توجهاته وشتى واجباته، فهو يؤدي إلى سلامة القلب من العلل، وثبات وجهته على الخير، وبالتالي يوصِّل إلى توفيق الله ورضوانه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله لاَ يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ - وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ»[1].

إن الضمير الإنساني محله القلب الذي بصلاحه يصلح الجسد والروح والعمل، وبفساده يفسد كل شيء، وهذا ما وضحه النبي ﷺ حيث قال: «الحَلاَلُ بَيِّنٌ،

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، حديث رقم: ٢٥٦٤.

وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»[1].

فالقلب الذي دلَّ عليه الحديث ليس القلب الذي في صدر الإنسان والذي مهمته ضخ الدم إلى جميع أنحاء الجسم؛ بل هو الضمير اليَقِظ، والرقيب الداخلي الذي يوجه الإنسان دينيًّا وتربويًّا وأخلاقيًّا وسلوكيًّا، فإذا أقدم الإنسان على عملٍ مخالفٍ يَشعُر بالندم والألم والرفض الداخلي، وإذا كان هذا العمل موافقًا يَشعُر بالراحة والسعادة والطمأنينة. وصدق الشاعر حيث قال[2]:

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، حديث رقم: ٥٢، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم: ١٥٩٩.

(٢) البيت منسوب إلى أحمد بن يحيى الشيباني، ينظر: النوادر لأبي علي القالي، ٢/ ٩٤، ط٢ دار الكتب المصرية ١٩٢٦م.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ الله يغفلُ ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ

ألم تر أن اليوم أسرعُ ذاهبٍ وأنَّ غدًا للناظرين قريبُ

ولا يكون القلب سليمًا والضمير يَقِظًا إلا إذا تربى المسلم على الإيمان الصادق، الذي يشعر به الإنسان أن الله معه، يسمعه ويراه، ويعلم ما يفعله، ويحاسبه يوم القيامة على ما قدَّم، فالإنسان عندما يعتقد أن الله معه يجتهد في مراقبته تعالى، ويستحضر عظمته ﷻ في كل أقواله وأعماله، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام عندما سُئل عن الإحسان الذي هو أعلى درجات الدين واليقين، قَالَ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

من هنا عُني الإسلام عنايةً فائقةً بتربية المسلم على يقظة الضمير، والخوف من الله ومراقبته وطلب رضاه، حتى إذا غابت رقابةُ البشر وهمَّت نفسُه بالحرام والإفساد

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [سورة لقمان، الآية ٣٤]، حديث رقم: ٤٧٧٧.

في الأرض تحـرك ضميره الحي اليَقِـظ؛ فيصدُّه عن كل ذلك، ويذكِّره بأن هناك من لا يغفل ولا ينام، ويحكم بين عباده بالعدل، ويقتص لمن أسـاء وقصَّر، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2].

بهذا الضمير الإنساني يستطيع الإنسان تأدية العبادات على الوجه الأكمل، فتجد صاحبَه محافظًا على العبادات والطاعـات والذكر وقراءة القرآن، فـإذا لم يكن موصولاً بالله فإنه سـيأتي يومٌ ويموت ضمير هذا الإنسان، وعندما يمـوت الضمير يختـل الميـزان وتضطرب الحيـاة، ولا يسـتطيع صاحبه أن يعبـد الله حق عبادتـه؛ لأنه لا يبتغي من ورائها ثوابًا ولا يخاف عقابًا، ولا يخشى من مسـاءلة يوم القيامة.

(١) [سورة الانفطار، الآيات ١٠ - ١٢].
(٢) [سورة الإسراء، الآيتان١٣ - ١٤].

فبالضمير الحـي اليَقِظ ينضبط السـلوك والتصرفات، وتحفـظ الحقوق وتؤدى الواجبات؛ حتى وإن غابت رقابة البشر، فتقوى الله ومراقبته والخوف منه والاستعداد للقائه أقـوى في نفس المسـلم مـن كل شيء، فصاحب الضمير الحي يدرك أن الله معه حيث كان في السفر أو الحضر، في الخلـوة أو في الجلوة، لا يخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وغـير ذلك من عـشرات الآيات التي تربي الضمائر على محاسبة النفس والاستعداد للقاء الحقِّ ﷻ.

وصاحـب الضمير الحي يجيد عملـه ويؤدى واجبه، سـواء رآه الناس أم لم يروه، وسـواء أثنوا عليه أم لا، فإنه يُحسـن عملَه على أية حال وبالتـالي فالإقبال على العمل والإحسان فيه يجب أن يكون بدوافع إيمانية وضمير يقظ،

(١) [سورة المجادلة، الآية ٧].

استرضاءً لله وإن جحد الخلقُ، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]، ومِن ثَمَّ فإن إحياء الضمائر يأتي من محاسبة النفس ومراقبتها لله تعالى، والخوف منه ﷻ.

ولقد ضرب القرآن الكريم لنا مثلاً بيوسفَ عليه السلام في الطُّهر والعفاف حين حجَزَهُ ضميرُه عن الانجراف وراءَ الهوى، إذ أقبلت الدنيا بمتعها في شخصية امرأة العزيز تراوده عن نفسه فأبى، ولاذ بدينه قائلاً: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، لقد أحسَّ بمراقبة الله عليه، وأنه يراه في هذا المكان المغلق، فاعتصم بدينه، وانتصر صوت الإيمان في قلبه على صوت الغريزة في بشريته، فكانت يقظةُ الضمير أقوى حارس عليه.

إن المؤمن القوي في عقيدته، القوي في يقظة ضميره، القوي في محاسبة نفسه، هو السعيد في الدنيا، والفائز في

(١) [سورة الشعراء، الآيتان ٨٨، ٨٩].
(٢) [سورة يوسف، الآية ٢٣].

الآخـرة برضوان الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[1].

ولقـد ربى النبيُّ ﷺ أتباعَه على يقظة الضمير ومراقبة اللـه ﷻ، فيـأتي رجـلان مـن المسـلمين إلى النبي ﷺ يختصـمان في قطعـة أرض ليس لأحدٍ منهـما بينة، وكلٌّ واحد منهـما يدعي أنها له وقد ارتفعت أصواتهما، فقال: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَـلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَـنُ بِحُجَّتِه مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِه فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّـارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا»[2]، عند ذلك تنازل كل واحد منهـما عن دعـواه؛ لأن النبي ﷺ قد حرَّك في نفوسـهما الإيمـان، وارتفـع بهـما إلى مسـتوى عـالٍ مـن التربية الوجدانية وبناء الضمـير والتهذيب الخُلقي، فكانت هذه التربية وبناء الضمير حاجزًا لهما عن الظلم والحرام، وهو الدافع إلى كل خير.

(١) [سورة الحشر، الآية ١٨].
(٢) صحيح البخاري، كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ مَنْ أَقَامَ البَيِّنَةَ بَعْدَ اليَمِينِ، حديث رقم: ٢٦٨٠.

ومـن النـماذج التـي أحيا الإيمـان في قلوبهـا يقظة الضمير: مـا ورد عن عبدٍ أَمَّنَهُ سَـيِّدُه على الغنم، فضرب المثل الأعـلى في العفة والنقاء، ويقظة الضمير الإيماني، فعن نافع قال: خرجت مع ابن عمر ﷺ في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له، فوضعوا سـفرة، فمر بهم راعٍ، فقال له عبد الله: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك نجتزرها ونطعمك من لحمها ما تقطـر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنهـا ليسـت لي، إنها لمـولاي، قال: فما عـسى أن يقول مـولاك إن قلت: أكلها الذئـب، فمضى الراعي وهو رافع إصبعه إلى السـماء وهو يقول: فأين اللـه؟ قال: فلم يزل ابن عمـر يقول: قال الراعي: فأين اللـه؟ فما عدا إن قدم المدينـة فبعث إلى سـيده فاشـترى منه الراعـي والغنم، فاعتق الراعي، ووهب له الغنم ﷺ»[1].

ونحن نسـير في ركب أصحـاب الضمائر الحية الذي خلَّـد الزمـنُ ذكراهـم، نذكر تلـك القصة التي سـجلها

(١) انظر: صفة الصفوة، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ١/ ٤٠٢، ط دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

التاريخ صورة رائعة فريدة مؤثرة، تبين مدى يقظة الضمير الحي والحس الإيماني، فقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يَعُسُّ المدينةَ إذ أَعيا، فاتَّكأ على جانب جدارٍ في جوف الليلِ، فإذا امرأةٌ تقولُ لابنتها: يا ابنتاه، قُومي إلى ذلكَ اللَّبنِ فامْذُقيه بالماء، فقالت لها: يا أمَّتاه، وما عَلمتِ بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟! قالت: وما كانت من عزمته يا بُنيَّة؟ قالت: إنَّه أمر مناديه فنادى: ألا يُشَابَ اللَّبنُ بالماء. فقالت لها: يا بنتاه، قومي إلى اللَّبن فامْذُقيه بالماء، فإنك بموضعٍ لا يَراكِ عمرُ، ولا مُنادي عمرَ، فقالت الصبيَّةُ لأمِّها: يا أمَّتاه، واللهِ ما كنتُ لأُطيعَهُ في الملأ، وأَعصيَهُ في الخلا. وعمرُ يَسْمع كلَّ ذلك، فقال: يا أسلمُ، علِّم البابَ، واعرفِ الموضعَ، ثم مضى في عَسَسه، فلمَّا أصبح، قال: يا أسلمُ، امضِ إلى الموضعِ، فانظر مَن القائلة، ومَن المقول لها، وهل لهم من بَعْلٍ؟ فأتيتُ الموضعَ، فنَظَرتُ، فإذا الجاريةُ أَيِّمٌ لا بَعْلَ لها، وإذا تيك أمُّها، وإذا ليس لهم رجلٌ، فأتيتُ عمرَ ابن الخطاب فأخبرتُهُ، فدعا عمرُ وَلَدَهُ فجَمَعَهُم، فقال: هل فيكم مَن يحتاجُ إلى امرأةٍ أُزوِّجُهُ، ولو كان بأبيكم

حَرَكَةٌ إلى النساء ما سَبَقَهُ فيكم أحدٌ إلى هذه الجارية. فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن: لي زوجة، وقال عاصم، يا أَبَتاهُ، لا زوجةَ لي، فزَوِّجني، فبَعَثَ إلى الجارية فزَوَّجها من عاصم، فَزَوجهَا من عَاصِم فَولدت لعاصم، بِنْتا وَولدت الْبِنْت ابْنة، وَولدت الِابْنَة عمر بن عبد العزيز رحمه الله[1].

إن الأمة في أمسِّ الحاجة إلى أصحاب الضمائر الحية والسرائر النقية حتى تنهض وترتقي وتسعد، فإن سعادة المجتمع ورقيه في يقظة ضمير أبنائه وتقوية الوازع الديني في نفوسهم؛ لأنه هو المهيمن على شئونهم، فإذا مات الضمير الإنساني والوطني نتج عن ذلك فساد في الأخلاق والمعاملات، فما الذي يمنع الموظف أن يرتشي؟! والكاتب أن يزوِّر؟! والجندي أن يُخِلَّ في عمله؟! والطبيب أن يهمل في علاج مريضه؟! والمعلم أن يقصر في واجبه؟! والقاضي أن يظلم في حكمه؟!

(١) أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز وسيرته، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، ص٤٨، ط مؤسسة الرسالة - بيروت / سورية، الطبعة: الثانية، ١٩٨٠م - ١٤٠٠هـ.

والتاجـر أن يغـش ويحتكر في تجارتـه؟! ... وهكذا في كثير من جوانب الحياة.

إن الذي يمنع كل ذلك هو الضمير الإيماني والوطني اليَقِظ الذي يهـذِّب الأخلاق، ويقوِّم اعوجاج السـلوك، ويكون سـببًا في إصلاح النيـات، وقبول الأعمال، وكثرة العبـادات والطاعـات؛ بـل إنه يـورث الخوف مـن الله والخشـية مـن عذابـه وسـخطه، قال تعـالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]، عـلى أن الضمـير الوطنـي اليَقِظ هو الذي يبني ولا يهدم، ويعمر ولا يخرب، ويسـعى إلى صناعة الحياة لا إلى صناعة الموت.

إذا مات الضمير فإن الحياة تَفسُد؛ ذلك أن الضميرَ الحيَّ سرُّ الحياة، من غيره تموت الشعوب والأوطان، وتنتهـي الأمم والحضارات، وتـزول القيم والمبادئ، ويُصبِـح كل شيء مباحًـا: كلام الـزور، والخيانـة، والسرقـة، والمـال الحـرام، والقتل، والسـكوت عن

(١) [سورة السجدة، الآية ١٦].

الظلـم والظالمـين، وتزييـف الحقائـق وغيرهـا مـن موبقات الحياة.

لذا وجب علينا جميعًـا أن نحيي ضمائرنا بتقوى الله ومراقبتـه، والنظر إلى مصالـح مجتمعنا ووطننا، ولنحذر أن تكون أجسـادنا بلا ضمائر حيـة متصلة بالحق والخير والمعروف، حتى تتنزل علينا رحمة الله ومغفرته.

❊ ❊ ❊

الحلـم والأَنَاة

من الأخلاق الإسلامية العالية التي تثمر الألفة والمودة والمحبـة والترابط بين أفراد المجتمع خلق الحلم، ومادة (ح ل م) تـدل على عدة أمور: منها: تـرك العجلة والأناة والعقل، بخلاف السفه والطيش[1].

ويـراد بالحلـم ضبـط النَّفـس والطَّبع عـن هيجان الغضب، وقيل: هو الطُّمَأْنِينَة عند سَوْرَة الغضب، فالحِلْم يشـتمل على الصَّبر والأَنَاة، وقيل: هو تـرك الانتقام عند شـدة الغضب مع القـدرة على ذلك، وقيـل: هو احتمال الأعلى الأذى من الأدنى، أو رفع المؤاخذة عن مستحقها بالجناية في حقٍّ مستعظم.

ومـن هـذه التعريفـات يتضـح أن الحلم هـو تحمل الأذى والإساءة من الآخرين بدون غضب مع القدرة على

(١) انظر : لسان العرب، ١٢/ ١٤٦، دار صادر – بيروت – ١٤١٤ هـ.

ردهـما بمثلهما، فـإذا كان هذا التحمل مـع الغضب فهو كظـم للغيظ، ولا يتصور حلم بـدون قدرة على ردِّ الأذى والإساءة.

والحلـم اسـم من أسـماء اللـه (تعالى) الحسـنى، فهو ﷻ الحليـم الذي يعفو عن كثير من سـيئات عباده ولا يؤاخذهـم عليها، ويمهلهم بتأخـير العقوبة للتوبة، والإنابـة إليـه، قـال تعـالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[1]، وقـال ﷻ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾[2].

والحلـم من أخلاق الأنبياء والمرسـلين، فقد وصف اللـه ﷻ به إبراهيـم عليه السلام فقـال ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ

(١) [سورة فاطر، الآية ٤٥].
(٢) [سورة الشورى، الآيات ٣٢، ٣٤].

إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[1]، كما وصف به إسماعيل عليه السلام فقال ﷻ ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[2].

والحلم من الأخلاق التي تجلب للعبد محبة الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال للمنذر بن عائذ بن المنذر (أشج عبد القيس) حينما قدم عليه من البحرين مع وفد عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ»[3].

وقد اجتمع معه ﷺ جمعٌ من الصحابة (رضوان الله عليهم) في بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لتناول الطعام، فقامت أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها بإرسال خادمها بقصعة من الطعام للنبي ﷺ وأصحابه، فدبّت الغيرة في قلب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقامت بضرب يد خادم أم سلمة رضي الله عنها فسقط الإناء على الأرض وانكسر ـ كل ذلك

(١) [سورة التوبة، الآية ١١٤].
(٢) [سورة الصافات، الآية١٠١].
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَرَائِعِ الدِّينِ، وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ، حديث رقم: ٢٥ .

أمام الصحابة ـ فلم يغضب النبي ﷺ، ولم ينهر عائشة، بل عالــج الموقف بحلم وحكمة، فنظر للصحابة رضي الله عنهم وقال: (غَارَتْ أُمُّكُمْ)، وجمع الطعام في الإناء المكســور، ومنع الخادم من العودة لأم سلمة بدون إناء حتى لا يعكر صفو العلاقة بينهما، وأرســل قصعة عائشــة لأم ســلمة رضي الله عنهما مع الخادم جزاء وفاقًا[1] .

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَــمَّا أَرَادَ هَــدْيَ زَيْدِ بْنِ سَــعْنَةَ، قَالَ زَيْدُ بْنُ سَــعْنَةَ: مَا مِنْ عَلَامَــاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَــدْ عَرَفْتُهَا فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلَّا شَــيْئَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ، يَسْــبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلَا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا، فَكُنْتُ أَلْطُفُ بِهِ لِئَنْ أُخَالِطَهُ فَأَعْرِفُ حِلْمَهُ مِنْ جَهْلِهِ، قَالَ زَيْدُ بْنُ سَــعْنَةَ فَخَرَجَ رَسُــولُ الله ﷺ يَوْمًا مِنَ الْحُجُرَاتِ، وَمَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَأَتَاهُ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ كَالْبَدَوِيِّ، فَقَالَ: يَا رَسُــولَ الله، إِنَّ بُصْرَى قَرْيَةُ بَنِي فُلَانٍ قَدْ أَسْلَمُوا وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَكُنْتُ حَدَّثْتُهُمْ إِنْ أَسْلَمُوا آتَاهُمُ الرِّزْقُ رَغَدًا

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، حديث رقم: ٥٢٢٥ .

وَقَدْ أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ وَشِـدَّةٌ وَقُحُوطٌ مِنَ الْغَيْثِ، فَأَنَا أَخْشَى يَا رَسُولَ الله أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الإِسْلَامِ طَمَعًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ طَمَعًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِـلَ إِلَيْهِمْ بِشَيْءٍ تُعِينُهُمْ بِهِ فَعَلْتَ، فَنَظَرَ إِلَيَّ رَجُلٌ إِلَى جَانِبِهِ - أُرَاهُ عَلِيًّا ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللـهِ مَا بَقِيَ مِنْـهُ شَيْءٌ، قَالَ زَيْدُ بْنُ سَـعْنَةَ: فَدَنَـوْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي تَمْرًا مَعْلُومًا مِنْ حَائِطِ بَنِي فُلَانٍ إِلَى أَجَلِ كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: «لَا يَا يَهُودِيُّ، وَلَكِنْ أَبِيعُكَ تَمْرًا مَعْلُومًا إِلَى أَجَلِ كَذَا وَكَذَا، وَلَا أُسَـمِّيَ حَائِطَ بَنِي فُلَانٍ» فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَبَايَعَنِي فَأَطْلَقْتُ هِمْيَانِي (الكيس الـذي تجعل فيه النفقة) فَأَعْطَيْتُهُ ثَمَانِـينَ مِثْقَالًا مِنْ ذَهَبٍ فِي تَمْـرٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلِ كَذَا وَكَذَا فَأَعْطَاهَا الرَّجُلُ، فَقَالَ: اعْدِلْ عَلَيْهِمْ وَأَعْنِهُمْ بِهَا، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ: فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ مَحَلِّ الْأَجَلِ بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ وَرِدَائِـهِ وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ غَلِيـظٍ فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَقْضِينِي يَا مُحَمَّـدُ حَقِّي؟ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُمْ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَـيِّئَ الْقَضَاءِ مَطْلٌ، وَلَقَدْ كَانَ لِي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ، وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ فَـإِذَا عَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكِ الْمُسْـتَدِيرِ، ثُمَّ رَمَـانِي بِبَصَرِهِ، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللهِ، أَتَقُولُ لِرَسُـولِ اللهِ ﷺ

مَا أَسْـمَعُ وَتَصْنَعَ بِهِ مَا أَرَى؟ فَوَالَّـذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلاَ مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُون وَتُؤَدَة وَتَبَسَّمَ، ثُمَّ قَالَ: (يَا عُمَرُ أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْـنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَأَعْطِه حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ»، فَقُلْتُ: مَا هَذِه الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ؟ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُـولُ الله ﷺ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا نَقَمتُكَ، قُلْتُ: أَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ؟ قَالَ: لاَ، مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ، قَالَ: الْحَبْرُ، قُلْـتُ: الْحَبْرُ، قَـالَ: فَمَا دَعَـاكَ أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُـول الله ﷺ مَـا فَعَلْتَ، وَقُلْـتَ لَهُ مَا قُلْتَ؟ قُلْتُ لَهُ: يَا عُمَـرُ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِـنْ عَلاَمَاتِ النُّبُـوَّةِ شَيْءٌ إِلاَّ وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي وَجْهِ رَسُـول اللـه ﷺ حِينَ نَظَـرْتُ إِلَيْهِ إِلاَّ اثْنَيْنِ لَـمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ: هَلْ يَسْـبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلاَ تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلاَّ حِلْمًا فَقَد اخْتَبَرْتُهُمَا فَأُشْـهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَـدْ رَضِيتُ بِالله رَبًّا وَبِالْإِسْـلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّد ﷺ نَبِيًّا وَأُشْهِدُكَ أَن شَطْرَ مَالِي ـ فَـإِنِّي أَكْثَرُهُمْ مَـالاً ـ صَدَقَةٌ عَلَى أُمَّـةِ مُحَمَّد ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ، فَإِنَّكَ لاَ تَسَعَهُمْ، قُلْتُ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ، فَرَجَعَ زَيْدٌ إِلَى رَسُـولِ الله ﷺ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَبَايَعَهُ وَشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ زَيْدٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ وَرَحِمَ اللهُ زَيْدًا»[1].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمَسْبُوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ كُلَّمَا يَشْتُمُكَ هَذَا، قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قَالَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا بَلْ لَكَ أَنْتَ، أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ»[2].

وعلى المسلم أن يستحضر كريم ما أعده الله ﷻ للحلماء والعافين عن الناس من الثواب العظيم، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ

(١) المستدرك للحاكم، كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ذِكْرُ إِسْلَامِ زَيْدِ بْنِ سَعْنَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم: ٦٥٤٧ .
(٢) مسند أحمد، ٣٩/ ١٥٤، حديث رقم: ٢٣٧٤٥.

عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]، فقد قيل: إنما الحلم بالتحلم، أي: بالصبر، وتدريب النفس على التحمل، وترك إرادة الانتقام.

والحلم فيه سؤدد، وتقدم على الناس، وقال معاوية لعرابة بن أوس: «بم سدت قومك يا عرابة»؟ قال: «يا أمير المؤمنين، كُنْتُ أَحْلُمُ عَنْ جَاهِلِهِمْ، وَأُعْطِي سَائِلَهُمْ، وَأَسْعَى في حوائجهم، فمن فعل فِعْلِي فَهُوَ مِثْلِي، وَمَنْ جَاوَزَنِي فَهُوَ أَفْضَلُ مِنِّي، وَمَنْ قَصَّرَ عَنِّي فَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ»[2].

والحلم سبب للمودة والمحبة والألفة والترابط بين الأفراد والجماعات، ويذهب الحقد والحسد والبغضاء والشحناء بينهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[3].

(١) [سورة آل عمران، الآيتان ١٣٣، ١٣٤].
(٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ٣/ ١٧٨، دار المعرفة – بيروت.
(٣) [سورة فصلت، الآيتان ٣٤، ٣٥].

والحليـم خير داعية إليه، ففيه اقتداء، واهتداء بأخلاق الأنبياء والمرسـلين، وبفضل التحلي به يدخل الناس في دين الله، كما في قصة الأعرابي الذي أراد قتل النبي ﷺ، وقصة إسلام زيد بن سعنة رضي الله عنه.

والحلـم دليـل على كـمال العقـل، وسـعة الصدر، وامتـلاك النفس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسـول الله ﷺ قـال: «لَيْسَ الشَّـدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّـدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَـهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»[1]، (بالصرعـة): الذي يغلب الرجال ويصرعهـم، (يملـك نفسـه): يكظم غيظـه ويتحلم، ولا يعمل بمقتضى غضبه.

* * *

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم: ٦١١٤، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث رقم: ٢٦٠٩.

المواساة في القرآن الكريم

إن المواساة من القيم الإسلامية النبيلة، والأخلاق الإنسانية الفاضلة التي يُعين بها الإنسان غيره على التغلب على أحزانه وآلامه، والمتأمل في كتاب الله ﷻ يجد أنه قد أولى قيمة المواساة عناية خاصة؛ بل إن الله ﷻ تولَّى بنفسه مواساة أنبيائه وأوليائه وأصفيائه، فهذا سيد الخلق ﷺ حين آذاه قومه ولاقى منهم الصدود والإعراض واساه ربه ﷻ بقوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[1]، أي: اصبر لقضاء ربك فيما حمَّلك من رسالته، وفيما ابتلاك به من قومك، فإنك بأعيننا نراك ونحفظك، ونحوطك، ونحرسك.

وحين تفطَّر قلبُه ﷺ حزنًا على إعراض قومه عن الاستجابة لنداء الحق، واساه ربنا ﷻ بقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ

(١) [سورة الطور، الآية ٤٨].

بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1]، وبقوله ﷻ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾[2]، أي: لعلك مُهلِكٌ نفسَك حزنًا بسبب توليهم وإعراضهم عن الحق، فهذه الآيات وأمثالها نزلت مواساةً وتطييبًا لخاطر نبينا ﷺ، كما واساه ربه ﷻ موجهًا إياه ألا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾[3]، وقال ﷻ: ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾[4]، فلا تُكلِّف نفسك تكليفًا شاقًّا مُضْنيًا، فما عليك إلَّا البلاغ والبيان، أما هداية التوفيق فمن الله وحده، حيث يقول ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[5].

كما أن المتأمل في القرآن الكريم يرى مواساة الله ﷻ لأم موسى عليه السلام، حين أُمرت أن تلقي ولدها عليه السلام في اليم، فتفطَّر قلبُها خوفًا عليه، فواساها الله ﷻ وطمأن فؤادها،

(١) [سورة الكهف، الآية ٦].
(٢) [سورة الشعراء، الآية ٣].
(٣) [سورة الرعد، الآية ٤٠].
(٤) [سورة الغاشية، الآية ٢٢].
(٥) [سورة القصص، الآية ٥٦].

حيث يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، ثم واساها ﷻ حين رد ولدها ﷺ إليها ردًّا جميلاً، حيث يقول ﷻ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

كما جاءت المواساة في القرآن الكريم للسيدة مريم عليها السلام، حين اشتد عليها الأمر، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[3]، فأمر الله تعالى من يناديها ليطمئن قلبها، حيث يقول ﷻ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[4].

(١) [سورة القصص، الآية ٧].
(٢) [سورة القصص، الآية ١٣].
(٣) [سورة مريم، الآية ٢٣].
(٤) [سورة مريم، الآيات ٢٤ - ٢٦].

إن صور المواساة كثيرة، منها: المواساة بالمال، والمواساة بالنصيحة، والمواساة بالمشاركة الوجدانية، والمواساة بالدعاء، ولقد ذكر لنا القرآن الكريم مواساة الرجل الصالح لموسى عليه السلام حين خرج خائفًا من قومه، وقصَّ عليه ما كان من أمر فرعون معه، فواساه قائلاً: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، كما ذكر لنا القرآن الكريم مواساة الملائكة عليهم السلام للوط عليه السلام حين خاف من قومه، قائلين له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾[2].

ولقد وجه نبينا ﷺ إلى التحلِّي بهذه القيمة النبيلة، حيث يقول ﷺ: «مَن كانَ معهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا ظَهْرَ له، وَمَن كانَ له فَضْلٌ من زَادٍ فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا زَادَ له»[3]، ويقول ﷺ: «مَنْ سرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ القِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»[4]، وعَنْ أَبِي

(١) [سورة القصص، الآية ٢٥].
(٢) [سورة العنكبوت، الآية ٣٣].
(٣) صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال، حديث رقم: ١٧٢٨.
(٤) صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، حديث رقم: ١٥٦٣.

هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ فَرَّجَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَــةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَـتَرَ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْــلِمِ سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي حَاجَةِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ»(١).

وعَنْ أَنَـسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِــيُّ ﷺ المَدِينَةَ أَتَاهُ المُهَاجِـرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُــولَ الله، مَــا رَأَيْنَا قَوْمًــا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ وَلاَ أَحْسَــنَ مُوَاسَــاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَــوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِــمْ، لَقَدْ كَفَوْنَــا المُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَــا فِي المَهْنَإِ حَتَّى لَقَــدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّــهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ، مَا دَعَوْتُمُ الله لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ»(٢).

كما أثنى ﷺ على الأشـعريين لتحلِّيهم بهذه الفضيلة حـين قــال: «إِنَّ الأَشْـعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَـزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَــامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَــةِ جَمَعُوا مَــا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ

(١) السنن الكبرى للنسائي، كِتَابُ الرَّجْمِ، التَّرْغِيبُ فِي سَتْرِ الْعَوْرَةِ وَذِكْرُ الِاخْتِلَافِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ نَشِيطٍ فِي خَبَرِ عُقْبَةَ فِي ذَلِكَ، حديث رقم: ٧٢٤٧.
(٢) سنن الترمذي، أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الحَوْضِ، باب منه، حديث رقم: ٢٤٨٧.

وَاحِد، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»[1].

قد جاء الإسلام برسالة جامعة للقيم الفاضلة والمُثُل العليا، ومن تلك القيم الفاضلة قيمة جبر الخاطر، فهي قيمة تنبئ عن شرف النفس، ورقة القلب، ولقد أعلى الله ﷻ من شأن قيمة المواساة وجبر الخاطر، فجعلها صفة من صفاته، تتعلق باسمه تعالى (الجبار)، حيث يقول ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾[2]، يجبر الفقر بالغنى، والمرض بالصحة، قال القرطبي: «هُوَ مِنَ الْجَبْرِ وَهُوَ الْإِصْلَاحُ، يُقَالُ: جَبَرْتُ الْعَظْمَ فَجَبَرَ، إِذَا أَصْلَحْتُهُ بَعْدَ الْكَسْرِ، فَهُوَ فَعَّالٌ مِنْ جَبَرَ إِذَا أَصْلَحَ الْكَسِيرَ وَأَغْنَى الْفَقِيرَ»[3]، وكان من دعاء نبينا ﷺ: «اللهمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَاجْبُرْنِي، وَارْزُقْنِي»[4].

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَاب الشِّرَكَةِ، بَابُ الشِّرَكَةِ فِي الطَّعَامِ وَالنَّهْدِ وَالعُرُوضِ، حديث رقم: ٢٤٨٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة (رضي الله تعالى عنهم)، باب من فضائل الأشعريين ﷺ، حديث رقم: ٢٥٠٠.

(٢) [سورة الحشر، الآية ٢٣].

(٣) تفسير القرطبي، ١٨/ ٤٧، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

(٤) سنن الترمذي، أَبْوَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ، حديث رقم: ٢٨٤.

كما تجلى الله ﷻ على عباده فجبر خواطرهم، وطيَّب نفوسهم، فهذا يعقوب عليه السلام يأتيه الفرج من الله ﷻ بعد الشدة والبلاء، فيرد الله إليه بصره وولديه، حيث يقول تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، ولما أُخرج نبينا ﷺ من وطنه مكة جبر الله تعالى خاطره، وأوحى إليه في طريقه إلى المدينة قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[2]، أي: إلى مكة مرة أخرى.

ويتجلَّى خُلُق جبر الخاطر في حياة نبينا ﷺ حين لقي نبيُّنا ﷺ جابرَ بن عبد الله رضي الله عنه منكسرًا لاستشهاد أبيه عبد الله رضي الله عنه وترْكه عيالاً ودَيْنًا، جبر ﷺ خاطر جابر رضي الله عنه، وقال له: «أَفَلا أُبَشِّرُكَ بمَا لَقِيَ اللهُ به أَبَاك؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَاب، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا (أي: من غير حجاب)، فَقَالَ:

(١) [سورة يوسف، الآية ٩٦].
(٢) [سورة القصص، الآية ٨٥].

يَا عَبْدِي، تمَنَّ عَليَّ أُعْطكَ، قَـال: يَا رَبِّ، تُحْيِيني، فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، فقَال الرَّبُّ ﷻ: إِنَّهُ قَدْ سَـبَق مِنِّي أَنَّهُمْ إليها لاَ يَرْجِعُونَ»[1].

ويضرب لنا نبيُّنا ﷺ أعظـمَ الأمثلة في جـبر الخواطر، حينـما جاءه فقـراء المهاجرين وقالوا له: يا رسـول الله، ذهب أهل الدُّثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفُضـول أموالهم، فقال لهم ﷺ: «أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْـبِيحَة صَدَقَةً، وَكُلِّ تكْبِـيرَة صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيـدَة صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَة صَدَقَـةً، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَـةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ»[2].

والمتأمـل في الشريعة الإسـلامية يجـد أنها جاءت بجـبر خواطر النـاس جميعًا، لا سـيما الضعفـاء منهم، حيث يقول تعـالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ

(١) سـنن ابـن ماجه، افتتـاح الكتاب في الإيـمان وفضائـل الصحابة والعلـم، بَابٌ فِيـمَا أَنْكَرَتِ الْجَهْمِيَّةُ، حديث رقم: ١٩٠.

(٢) صحيـح مسـلم، كتـاب الزكاة، باب بيان أن اسـم الصدقـة يقع على كل نوع مـن المعروف، حديث رقم: ١٠٠٦.

﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾[1]، أي: طيِّب خاطرهما، وأحسن إليهما، ويقول نبينا ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إلَّا بضُعَفَائِكُمْ؟!»[2]، ويقول ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى»[3]، ويقول ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»[4]، وحين سُئل ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قال: «أَنْ تُدْخِلَ عَلَى أَخِيكَ المُسْلِمِ سُرُورًا، أَوْ تَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْعِمَهُ خُبْزًا»[5]، وقال ﷺ: «أحَبُّ النَّاسِ إلى الله تَعَالى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إلى الله تَعَالى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ

(١) [سورة الضحى، الآيتان ٩، ١٠].
(٢) صحيح البخاري، كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَنِ اسْتَعَانَ بِالضُّعَفَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الحَرْبِ، حديث رقم: ٢٨٩٦.
(٣) صحيح البخاري، كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ يَعُولُ يَتِيماً، حديث رقم: ٦٠٠٥.
(٤) صحيح البخاري، كِتَابُ النَّفَقَاتِ، بَابُ فَضْلِ النَّفَقَةِ عَلَى الأَهْلِ، حديث رقم: ٥٣٥٣.
(٥) شعب الإيمان للبيهقي، الثالث والخمسون من شعب الإيمان (التعاون على البر والتقوى)، حديث رقم: ٧٢٧٣.

أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا المَسْجِدِ- يَعْنِي: مَسْجِدَ المَدِينَةِ- شَهْرًا»[1].

لا شك أنَّ جبر الخاطر قيمة أخلاقية تمتد لتشمل التكافل بين المجتمع كله، فالإسلام لا يَعْرِف الأنانية أو السلبية، وإنما يعرف الإخاء الصادق، ومراعاة مشاعر الناس، وجبر خواطرهم، حيث يقول نبينا ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»[2]، ويقول ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ»[3].

على أننا نؤكد أن جبر الخاطر كما يكون بالفعل، فقد يكون بكلمة حسنة، أو بدعاء صادق، أو بنصيحة

(١) المعجم الأوسط للطبراني، ٦/ ١٣٩، حديث رقم: ٦٠٢٦.
(٢) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ، حديث رقم: ٦٠١١، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٢٥٨٦، واللفظ له.
(٣) صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال، حديث رقم: ١٧٢٨.

خالصــة، أو بابتســامة طيبة، حيث يقــول نبينا ﷺ: «لا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوف شَــيْئًا، وَلَــو أنْ تَلقَى أخَاكَ بوجه طَلْقٍ»[1]، أي: مبتسم مستبشر، كما نؤكد أن جبر الخاطر لــه تأثير عظيــم في تأليــف القلوب، ووحــدة الصف، وترابط المجتمع.

* * *

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، حديث رقم: ٢٦٢٦.

الشهامة والمروءة والتضحية

إن من محاسن الأخلاق، وكريم الطباع التي إذا تحلى بها المسلم كانت دليلاً على علو همته، وصفاء نفسه، ورقة قلبه، وشعوره بالآخرين: الشهامة والمروءة، والتضحية، وهذه صفات إن دلت فإنما تدل على الجود والكرم والسخاء، وبها ينتشر الود والمحبة والترابط بين أفراد المجتمع، وبها تسمو الأمم وتعلو الأوطان؛ وذلك لأن تقديم العون والنصرة لمن يحتاج إليهما سلوك إسلامي أصيل، وخلق رفيع، تقتضيه الإنسانية .

ولقد حثنا القرآن الكريم على فعل الخير، وبيَّن أن الشهامة والمروءة والتضحية طريق الفلاح والنجاح، وقرن الدعوة إليه بالدعوة إلى عبادة الله ﷻ وطاعته، فقال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ** ﴾[1].

(١) [سورة الحج، الآية ٧٧].

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن فعل الخير عمومًا من أعظم أخلاق الأنبياء والمرسلين، ففي سورة الأنبياء يصف ربنا ﷻ سبعة عشر نبيًّا من أنبيائه بقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾[1].

ولقد كان النبي ﷺ أنموذجًا كاملاً في المروءة والشهامة قبل البعثة وبعدها، فكان يتصدر المواقف بيقين ثابت، وإيمان راسخ، وإنسانية راقية، وشهامة ومروءة ونبل، ونفس مطمئنة لا يعتريها فزع أو خوف، فها هي السيدة خديجة رضي الله عنها تشهد للنبي ﷺ، وتصف حاله قبل البعثة قائلةً: «كَلَّا وَالله مَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، قَالَ: وَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ

(١) [سورة الأنبياء، الآية ٩٠].

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، بَابُ بَدْءِ الوَحْيِ، كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ؟، حديث رقم: ٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كِتَابُ الْإِيمَانُ، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، حديث رقم: ٢٥٢.

المَدِينَـة لَيْلَةً سَـمِعُوا صَوْتًا، قَالَ: فَتَلَقَّاهُـمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَـرَسٍ لأَبِي طَلْحَةَ عُـرْيٍ (مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ) وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَـيْفَهُ، فَقَالَ: «لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا»[1]، أي: لا تخافوا ولا تفزعوا، وسأل رجلٌ البراءَ رضي الله عنه فقال: يا أبا عمارة، أولَّيتم يوم حنين؟ قال البراء: أمَّا رسـول الله ﷺ لم يولِّ يومئذ، كان أبو سفيان ابن الحارث آخذًا بعنان بغلته، فلما غشـيه المشركون نزل، فجعـل يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»، قال البراء: فما رئي من الناس يومئذ أشد منه ﷺ»[2].

ولقـد رغَّـب النبـي ﷺ في التحـلِّي بهـذه الأخلاق الراقيـة، والقيم النبيلة ودعا إليها، فقال ﷺ: «مَنِ اسْـتَعَاذَ باللـه فَأَعِيـذُوهُ، وَمَنْ سَـأَلَ باللـه فَأَعْطُوهُ، وَمَـنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَـا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[3]؛ بل وعـدَّ النبي ﷺ ذلـك من أحب الأعـمال إلى الله ﷻ،

(١) متفـق عليـه، صحيح البخاري، كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ إِذَا فَزِعُـوا بِاللَّيْلِ، حديث رقم: ٣٠٤٠، واللفـظ له، وصحيح مسـلم، كتـاب الفضائل، باب في شـجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب، حديث رقم: ٢٣٠٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابُ مَنْ قَالَ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ فُلَانٍ، حديث رقم: ٣٠٤٢.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، حديث رقم: ١٦٧٢.

فقال ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللـه تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَال إِلَى الله تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِـفُ عَنْهُ كُرْبَـةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًـا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًـا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَـةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ـ يَعْنِي: مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ ـ شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَـترَ الله عَوْرَتَـهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَـاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَـاهُ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَـوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَـنْ مَشَى مَعَ أَخِيـهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَـهُ أَثْبَتَ الله قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ»[1].

وقـد حذَّر النبي ﷺ من التخاذل وترك نصرة الضعفاء والمظلومين، فقـال: «مَا مِنَ امْـرِئٍ يَخْذُلُ امْرَءًا مُسْـلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيـهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنَ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْـلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِـنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»[2].

(١) المعجم الكبير للطبراني، ١٢/ ٤٥٣، حديث رقم: ١٣٦٤٦.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب مَن ردَّ عن مسلم غيبة، حديث رقم: ٤٨٨٤.

ولله درُّ القائل[1]:

إنِّـي لَتُطرِبُني الخِـلالُ كريمَةً ... طَـرَبَ الغَريبِ بِأَوبَـةٍ وَتَلاقـي
وَتَهُزُّني ذِكرى المُروءَةِ وَالنَدى ... بَيـنَ الشَمائِـلِ هِـزَّةَ المُشتاقِ
فَإِذا رُزِقتَ خَليقَــةً محمـودَةً ... فَقَدِ اصطَفاكَ مُقَسِّمُ الأَرزاقِ
فَالنــاسُ هَذا حَظُّــهُ مالٌ وذا ... عِلـمٌ وَذاكَ مَكــارِمُ الأَخــلاقِ

وقد تحلَّى أصحابُ رسـول اللـه ﷺ والتابعون من بعدهم بكريـم الخلال من النجدة والشـهامة والمروءة والنبـل والإيثـار، فقد جاء رجـلٌ النَّبـيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نسَـائه فَقُلْـنَ: مَا مَعَنَـا إِلاَّ المَاءُ، فَقَالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «مَنْ يَضُـمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟»، فَقَالَ رَجُـلٌ مِنَ الأَنْصَار: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِـه إِلَى امْرَأَته، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُـولَ الله ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَك، وَأَصْبِحِي سِرَاجَك، وَنَوِّمِي صِبْيَانَك إِذَا أَرَادُوا عَشَـاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَـا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَـا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلاَ

(١) القائل محمد حافظ إبراهيم فهمي. ينظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ٢/ ٢٤٨، ط مؤسسة المعارف، بيروت.

يُريَانِـه أَنَّهُمَا يَأْكُلاَن، فَبَاتَـا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُـولِ الله ﷺ، فَقَـالَ: «ضَحِكَ الله اللَّيْلَـةَ، أَوْ عَجِبَ مِـنْ فَعَالِكُمَا»، فَأَنْـزَلَ الله تعـالى قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وعَـنْ أَبِي جَهْم بْـنِ حُذَيْفَةَ الْعَدَوِيِّ، قَـالَ: «انْطَلَقْتُ يَـوْمَ الْيَرْمُـوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِّي، وَمَعِي شَـنَّةٌ مِـنْ مَاء، أَوْ إِنَاء، فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ بِه رَمَقٌ سَـقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ، وَمَسَحْتُ بِه وَجْهَهُ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يَنْشَـغُ، فَقُلْتُ: أَسْقِيكَ؟ فَأَشَارَ: أَيْ نَعَمْ، فَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: آه، فَأَشَارَ ابْنُ عَمِيَ أَنْ أَنْطَلِقَ بِه إِلَيْه، فَإِذَا هُوَ هِشَـامُ بْنُ الْعَاصِ أَخُو عَمْرٍو، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَسْـقِيكَ؟ فَسَمِعَ آخَرَ فَقَالَ: آه، فَأَشَارَ هِشَامٌ: أَنْ أَنْطَلِقَ بِه إِلَيْه، فَجِئْتُهُ فَـإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، فَرَجَعْتُ إِلَى هِشَـام فَـإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، فَرَجَعْتُ إِلَى ابْنِ عَمِيَ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ»[2].

---

(١) صحيـح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، بَـابُ قَوْلِ الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [سورة الحشر، الآية ٩]، حديث رقم: ٣٧٩٨.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، الثاني والعشرون من شعب الإيمان (الزكاة)، حديث رقم: ٣٢٠٨.

إن الشهامة والمروءة والتضحية والإيثار، وفعل الخير عمومًا يزيد من لُحمة التماسك والترابط الوطني والاجتماعي، ويزرعان المودة، والمحبة، والصفاء بين أفراد المجتمع، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ حينما نهى عن التباغض، والتحاسد، والتقاطع، والتدابر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ...»[1].

إن الأخوة الدينية والإنسانية تقتضي أن يقف كل منَّا بجوار أخيه، وأن يساعده، وأن يكون في عونه، وذلك لا يتحقق إلا بالمروءة وشهامة مع بعضنا، وقد رغب النبي ﷺ في ذلك، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [سورة الحجرات، الآية ١٢]، حديث رقم: ٦٠٦٦، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ تَحْرِيمِ الظَّنِّ، وَالتَّجَسُّسِ، وَالتَّنَافُسِ، وَالتَّنَاجُشِ وَنَحْوِهَا، حديث رقم: ٢٥٦٤، واللفظ له.

حَاجَـةِ أَخيه كَانَ الله في حَاجَتِه، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْـلِم كُرْبَةً فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَـتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

إن أهـل النجدة والمـروءة والشـهامة هم أصحاب التضحيات الغالية، الذين يترجمون المشاعر والعواطف الإنسـانية النبيلة إلى سـلوك وعمل فيه نصرة للمظلوم، وإغاثـة للملهوف، وإطعـام للجائع، وتأمـين للخائف وغـير ذلـك، وتتأكـد هـذه القيـم والأخلاق وتسـمو فيما بين الإنسـان وبـين وطنه، ولِـمَ لا؟ وحب الوطن والانتماء إليـه هو أغلى ما يملكه الإنسـان بعد الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فإن حب الوطن فطرة فطر الله الناس عليها، وقد أشار الله ﷻ إلى منزلة الأوطان في النفوس وحجم المشقة المترتبة على ترك الوطن حينما قرن بين قتـل النفس وترك الوطن، فقـال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا

(١) متفـق عليـه، صحيـح البخاري، كتاب المظـالم والغصب، بَابٌ: لَا يَظْلِمُ الْمُسْـلِمُ الْمُسْـلِمَ وَلَا يُسْـلِمُهُ، حديـث رقم: ٢٤٤٢، واللفظ له، وصحيح مسـلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨٠.

فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾[1].

فلا شك أن الدفاع عن العرض والأرض والكرامة كل ذلك يأتي في أعلى درجات التضحية والشهامة والنجدة والنبل؛ فإن أعلى درجات الجود هي الجود بالنفس والتضحية في سبيل الوطن.

ولقد بشَّر النبيُّ ﷺ حُرَّاسَ الوطن بالأمن من النار يوم القيامة، فقال ﷺ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[2]، فالتضحية من أجل الوطن والحفاظ على نسيجه، والتكاتف في سبيل حمايته والدفاع عنه واجب شرعي وضرورة وطنية؛ لتحقق العزة والكرامة.

ومما لا شك فيه أن ما تقوم به قواتنا المسلحة الباسلة ورجال الشرطة البواسل في مواجهة الإرهاب،

(١) [سورة النساء، الآية ٦٦].
(٢) سنن الترمذي، أبواب فضائل الجهاد، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الحَرَسِ فِي سَبِيلِ الله، حديث رقم: ١٦٣٩.

والحفاظ على أمن الوطن واستقراره أمر يستحق التقدير والدعم والمساندة، مع تأكيدنا أن أمنَ الأوطان مسئولية مجتمعية يجب أن نتعاون جميعًا فيها بما يحقق أمن هذا الوطن واستقراره، ويرد كيد الخائنين والمتربصين به في نحورهم.

وإذا تقرر هذا الحقُّ للوطن، فإنَّ حمايته من أي خطر داخلي يقوض بنيانه، أو يزعزع أركانه، أو يروع مواطنيه، أو ينتهك حرماته هو صنو الدفاع عنه ضد أي خطر خارجي؛ لذا وجب علينا جميعًا أن نعلم أن الدفاع عن الوطن وحمايته والحفاظ على استقراره، والتضحية من أجله من أعلى صور النجدة والشهامة والمروءة، وعنوان الإيجابية في حياة الإنسان، التي تعني الاستجابة والتلبية السريعة لقضاء حوائج الناس ابتغاء مرضاة الله ﷻ .

* * *

العدل وأثره في استقرار المجتمع

قد عُني الإسلام بالقيم والأخلاق عناية بالغة، فربط بينها وبين العقيدة والشريعة، وأكد على أن صلاح الأمم والمجتمعات بالأخلاق الحسنة، والقيم النبيلة؛ لذا قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[1]، وقال ﷺ: «إِنَّ مِن أَحَبِّكُم إِليَّ وأَقربكُم مِنِّي مجلسًا يومَ القيامَة أَحاسِنكم أخلاقا»[2]، فبالأخلاق الحسنة تُبنى الأمم والحضارات، وتقوم الدول والمجتمعات، وترتفع راياتها، ويعلو شأنها، والأمم التي لا تقوم على الأخلاق السوية تحمل عوامل سقوطها في أصل بنيانها.

ومن الأخلاق التي عُني بها الإسلام خلق العدل، وهو صفة من صفات الله تعالى، أقام بها السموات والأرض،

(١) مسند أحمد، ١٤/ ٥١٢، حديث رقم: ٨٩٥٢.
(٢) سنن الترمذي، أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَعَالِي الْأَخْلَاقِ، حديث رقم: ٢٠١٨.

وقد قالوا: إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحقِّ، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، وهو قيمة إنسانية وحضارية دعت إليها جميع الشرائع السماوية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]، وقال تعالى مخاطبًا داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[2]، وأمر الله ﷻ به نبينا ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾[3]؛ لذا كان ﷺ يأمر أصحابه وأتباعه بالعدل، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «إِذَا حَكَمْتُمْ فَاعْدِلُوا، وَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا، فَإِنَّ الله ﷻ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ»[4].

(١) [سورة الحديد، الآية ٢٥].
(٢) [سورة ص، الآية ٢٦].
(٣) [سورة الشورى، الآية ١٥].
(٤) المعجم الأوسط للطبراني، ٦/ ٤٠، حديث رقم: ٥٧٣٥.

والعـدل: هـو إعطـاء كل ذي حق حقـه، في الأقوال والأفعال والحقوق والواجبات دون تفرقةٍ بين دين ودين، أو جنس وجنس، أو لون ولون، ودون محاباة لأحد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1]، وقـال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

ولقد رسَّخ الإسلام قيمة العدل بين سائر البشر، ليشمل كل طبقـات المجتمـع دون تمييز أو انحياز؛ لأنه أسـاس الملـك، وطريق سـعادة الأمم، وسر أمنها واسـتقرارها، وسـبب بقائها ودوامها؛ ولهذا قيل: «إنّ اللهَ ينصرُ الدولةَ

(١) [سورة النساء، الآية ١٣٥].
(٢) [سورة المائدة، الآية ٨].

العادلـةَ ولو كانـتْ كافرةً، ويخـذُلُ الدولـةَ الظالمةَ ولو كانتْ مسلمةً»، وقد جعل نبينا ﷺ الإمام العادل في مكانة عالية، ومنزلة سـامية يوم القيامة في مقدمة السـبعة الذين يظلهم الله ﷻ في ظل عرشـه يوم لا ظل إلا ظله، فبعدله ينصلـح المجتمـع كله، وبظلمه يفسـد المجتمـع، يقول النبي ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّه، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّه، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَـاجِد، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْه وَتَفَرَّقَا عَلَيْه، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِب وَجَمَال، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِـمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[1].

غير أن الإسـلام جعل إقامة العدل وتحقيقه مسـئولية مشـتركة بين الحاكم والرعية، من خلال التزام كل إنسان بالقيام بمسـئوليته، فإن المسـئولية في تحقيق العدالة تقعُ عـلى كل مـن ولاَّه الله أمـر مجموعة مـن الناس في أي

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَابُ الْأَذَانِ، بابُ مَنْ جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ وَفَضْلِ الْمَسَاجِدِ، حديث رقم: ٦٦٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم: ١٠٣١.

مجال من المجالات، فعن ابن عمر ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّته، فَالأَمِيرُ الَّذي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْـئُولٌ عَنْهُـمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْته وَهُوَ مَسْـئُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعيَةٌ عَلَى بَيْـت بَعْلهَا وَوَلَده وَهيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَال سَيِّده وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْـهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْـئُولٌ عَنْ رَعِيَّته»[1]، فإذا ما التزم كل مسـئول مسـئوليته التي ولّاه الله ﷻ عليها تحقق العدل، وُحفظت الحقوق، واستقر المجتمع .

فصور العدل ومجالاته متعددة أحاطت بجميع مناحي الحياة، منها: عدل الإنسـان مع نفسـه، ويكون ذلك بعدم إيرادها موارد التهلكة، بارتـكاب الفواحش والمنكرات، أو الغلـو في ممارسـة الشـعائر والعبـادات... إلخ، قال تعـالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[2].

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب العتق، بَابُ كَرَاهِيَةِ التَّطَاوُلِ عَلَى الرَّقِيقِ، وَقَوْلِهِ: عَبْدِي أَوْ أَمَتِي، حديث رقم: ٢٥٥٤، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم: ١٨٢٩.

(٢) [سورة الطلاق، الآية ١].

ومنهـا: عدل الرجل في بيته، بحُسْـنِ معاملته لزوجته، ومعرفـة حقهـا، وأداء هذا الحـقِّ من نفسـه، حيث يقول الحـقُّ ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1]، وكذلـك عدله بين أبنائه، وعدم التفرقة بينهم في المعاملات المادية والمعنويـة؛ لأن ذلك يجلب الشـقاق ويزرع الحقد والغل والحسـد والكراهية بينهم، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِـيرٍ ﷺ قَالَ: تَصَـدَّقَ عَـلَيَّ أَبِي بِبَعْـضِ مَالِـه، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْـرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ الله ﷺ، فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُشْـهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟» قَالَ: لاَ، قَالَ: «اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلاَدِكُمْ»، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ»[2]، وكذلك عدل المرأة في بيت زوجها، بحُسْـنِ معاملة زوجها، والعدل بين أبنائها، والوفاء بحق أسرتها عليها.

كذلـك من صور العـدل ومجالاته: عدل كل مسـئول في نطاق مسـئوليته، فعلى كل مسـئول أن يتقي الله ﷻ في

(١) [سورة البقرة، الآية ٢٢٨].
(٢) صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، حديث رقم: ١٦٢٣.

نطاق مسئوليته، فلا يحابي أحدًا، ولا يجامل أحدًا، ويعامل مرؤوسيه كلهم بميزان العدل، وعليه أن يضع المصلحة العليا للوطن نصب عينيه، وليحافظ على مقدرات الوطن وثرواته، وليعلم أن الله ﷻ سائله عن كل ذلك، فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ»(١).

ومنها: عدل الإنسان مع غيره، وهذا له عدة صور، منها: العدل بين المتخاصمين، في القضاء، والشهادة ونحوهما، بدون تمييز أحد على حساب أحد، وبدون محاباة لأحد دون أحد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ،

(١) السنن الكبرى للنسائي، كِتَابُ عِشْرَةِ النِّسَاءِ، مَسْأَلَةُ كُلِّ رَاعٍ عَمَّا اسْتُرْعِيَ، حديث رقم: ٩١٢٩.
(٢) [سورة النساء، الآية ٥٨].

حبُّ رَسُـول الله ﷺ فكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَتَشْـفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُود الله؟ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِـمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1].

وهذا أبو بكر رضي الله عنه عندما تولى الخلافة خطب في الناس فقـال: «أيهـا النـاس، إني وليت عليكم ولسـت بخيركم، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقَّ منه، والضعيف فيكم قـوي عندي حتى آخذ الحقَّ لـه»[2]، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشـعري رضي الله عنه رسـالة هامة، جاء فيها: «آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلِكَ وَمَجْلِسِكَ؛ حَتَّـى لَا يَطْمَعَ شَرِيـفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْـأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ، الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»[3].

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الغَارِ، حديث رقم: ٣٤٧٥.
(٢) السـنن الكـبرى للبيهقـي، جماع أبواب تفريق مـا أخذ من أربعة أخماس الفـيء غير الموجف عليه، باب ما يكون للوالي الأعظم ووالي الإقليم من مال الله، وما جاء في رزق القضاة وأجر سائر الولاة، حديث رقم: ١٣٠٠٩.
(٣) سـنن الدارقطني، كِتَـابٌ فِي الْأَقْضِيَةِ وَالْأَحْـكَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كِتَابُ عُمَرَ رضي الله عنه إِلَى أَبِي مُوسَـى الْأَشْعَرِيِّ، حديث رقم: ٤٤٧١.

ومنهـا: العـدل في المعاملات المادية حتى يسـتوفي النـاس حقهم في البيع والـشراء، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾[1]، ومن صوره: العـدل في كتابـة الدَّيْـن، قال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾[2]، وكذلـك مـن العـدل أداء الحقـوق إلى أصحابهـا دون مماطلـة، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ»[3].

ألا فما أعظمه من دين، وما أعرقها من حضارة عرفتها البشرية، تلك التي يظلل العدل فيها كل أطياف المجتمع، فلقد سـادت في حضارة الإسلام ودولته على مرِّ تاريخها وعـبر مراحلها المختلفة مفاهيـم تهدف إلى القضاء على كل نظم الظلم، والاستبداد، والتعسف، والاضطهاد؛ رفعًا لكرامة الإنسـان بغض النظر عن لونه أو جنسـه، انطلاقًا

(١) [سورة الرحمن، الآية ٩].
(٢) [سورة البقرة، الآية ٢٨٢].
(٣) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَاب فِي الِاسْتِقْرَاضِ وَأَدَاءِ الدُّيُونِ وَالحَجْرِ وَالتَّفْلِيسِ، بَاب مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، حديث رقم: ٢٤٠٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني، وصحة الحوالة، واستحباب قبولها إذا أحيل على مليء، حديث رقم: ١٥٦٤.

من قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

إن من أهم صور العدل التي ينبغي تحقيقها في العصر الحديث، تحقيق العدل الإداري بين المرؤوسين، وتحقيق العدل في تقديم الخدمات للمتعاملين في كل المؤسسات، ووضع الضوابط الواضحة والحاسمة والدقيقة؛ حتى نصل إلى تحقيق الرضا المجتمعي العام، وتعميق الولاء والانتماء للوطن، وذلك أن الإقصاء الإداري بلا سبب حقيقي واضح ومعلوم يؤدي إلى السخط والاحتقان، أما الظلم فهو محض ظلمات، حيث يقول الحقُّ ﷻ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي

(١) [سورة الحجرات، الآية ١٣].
(٢) [سورة إبراهيم، الآية ٤٢].

لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[1].

فالعدل نور لصاحبه في الدنيا والآخرة، والظلم ظلمات يوم القيامة، وقد نهى النبي ﷺ عن الظلم بجميع أنواعه، وحذّر من دعوة المظلوم، فقال ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»[2].

وكان الإمام الماوردي يقول: «إنّ ممّا يصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل، الذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النسل، ويأمن به السّلطان»[3].

ومن العدل إنصاف المظلومين في كل مكان، وإعطاء كل ذي حق حقه، وعدم الجور أو الاعتداء على حقوق الآخرين، ومن هذا المنطلق نذكّر بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وأخصها حقه في إقامة دولته العربية

(١) [سورة الفرقان، الآيات ٢٧ – ٢٩].
(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم: ٢٩.
(٣) الأحكام السلطانية للماوردي، ص٦٢، دار الحديث – القاهرة.

المستقلة، وعاصمتها القدس الشريف، مع تأكيدنا على أن القدس عربية وستظل عربية بإذن الله تعالى، ففيها أقصانا الشريف، أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، ومَسرى النبي محمد ﷺ ومنطلق معراجه إلى السماوات العلى، ولا تشد الرِّحال بعد المسجدين إلا إليه، حيث يقول النَّبيّ ﷺ: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»[1]، وصلاة فيه خير من خمسمائة صلاة فيما سواه عدا المسجدين المسجد الحرام والمسجد النبوي، وقد بارك الله ﷻ فيه وحوله، وقال ﷻ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]، وفي ذلك توجيه للمسلمين بأن يعرفوا منزلته، ويستشعروا مسئوليتهم نحوه.

* * *

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، بَابُ فَضْلِ الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، حديث رقم: ١١٨٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، حديث رقم: ١٣٩٧.
(٢) [سورة الإسراء، الآية ١].

النجدة وإغاثة الملهوف

إن من محاسن الإسلام أنه دين ربط بين الشريعة والأخلاق والقيم الإنسانية، فلم يترك خُلقًا حسنًا، ولا فضيلة من الفضائل إلا دعا إليها ورغَّب فيها، ومن تلك القيم الفاضلة التي دعا إليها وحثَّ على التخلق بها: النجدة وإغاثة الملهوف، فهي قيم تنبئ عن علو الهمة وشرف النفس، بها تتآلف القلوب، وتزول العداوة بين الناس.

والنجدة وإغاثة الملهوف من أهم القيم النبيلة، والصفات العظيمة التي تميز الإنسان الأصيل عن غيره، فضلاً عن كونها من صفات الرسل عليهم السلام، فهذا نبي الله موسى عليه السلام حين خرج من مصر متوجهًا إلى مدين، فلما وصلها وجد جماعة من الناس يسقون أنعامهم، ووجد من دونهم امرأتين لا تسقيان، تذودان غنمهما عن ورود الماء، فتقدم بنفسه عليه السلام وسقى لهما،

حيث يقول الحقُّ ﷻ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[1]؛ ومن ثمَّ فإن نُصرةَ الإنسان وإغاثتَه من القيم النبيلة التي أمر بها الدين، يقول ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»[2]، ويقول ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يأخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أوشَكَ أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»[3]؛ بل إن النبي ﷺ عدَّها من حقوق الجوار التي يجب الوفاء بها، حيث قال: «أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ؟ إِنِ اسْتَعَانَ بِكَ أَعَنْتَهُ، وَإِنِ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِنِ افْتَقَرَ عُدْتَ عَلَيْهِ، وَإِنِ مَرِضَ عُدْتَهُ، وَإِنْ مَاتَ اتَّبَعْتَ جَنَازَتَهُ،

(١) [سورة القصص، الآيتان ٢٣، ٢٤].
(٢) صحيح البخاري، كتاب الإكراه، بَابُ إِذَا اسْتُكْرِهَتِ المَرْأَةُ عَلَى الزِّنَا فَلَا حَدَّ عَلَيْهَا، حديث رقم: ٦٩٥٢.
(٣) مسند أحمد، ١ / ٢١٢، حديث رقم: ٥٣.

وَإِنْ أَصَابَـهُ خَـيْرٌ هَنَّأْتَـهُ، وَإِنْ أَصَابَتْـهُ مُصِيبَـةٌ عَزَّيْتَهُ»[1]، ويقول ﷺ: «حَقُّ الْمُسْـلِمِ عَلَى الْمُسْـلِمِ سِـتٌّ، قِيلَ: مَا هِيَ يَا رَسُـولَ الله؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبَعْهُ»[2].

وقد ضرب النبي ﷺ أعظم الأمثلة في حُسْـن الخلق، عـلى نحو ما تحدثت به السـيدة خديجة رضي الله عنها حين قالت: «كَلَّا وَاللـه مَـا يُخْزِيكَ اللـه أَبَدًا، إِنَّـكَ لَتَصِـلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[3]، فكانت حياته ﷺ خير مثال يحتذى به في مروءته وشهامته ومسـاعدته لكل من يطلب العون والنجدة والإغاثة، وأن من أغاث النّاسَ وأعانَهم لا بُدَّ من أن يغيثَه ربُّه ويعينَه، فالجزاء من جنس العمل.

(١) شعب الإيمان للبيهقي، السابع والستون من شعب الإيمان إكرام الجار، حديث رقم: ٩١١٣.
(٢) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، حديث رقم: ٢١٦٢.
(٣) متفـق عليـه: صحيـح البخاري، بَابُ بَـدْءِ الوَحْـيِ، كَيْفَ كَانَ بَـدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُـولِ الله ﷺ؟، حديث رقم: ٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، حديث رقم: ٢٥٢.

وتتجلى شهامته ﷺ عند الشدائد، حيث كان ﷺ يتصدر المواقف والمصاعب بقلب ثابت وإيمان راسخ، فحينما فزع أهل المدينة من صوت عالٍ وأراد الناس أن يعرفوا سبب الصوت، أقبل عليهم النبي ﷺ وخرج لهم قبل الناس لمعرفة الأمر وليطمئنهم، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، قَالَ: وَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً سَمِعُوا صَوْتًا، قَالَ: فَتَلَقَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقَالَ: «لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا»[1].

لقد كانت مواقف النبي ﷺ مضرب المثل في الشجاعة والشهامة والنجدة وإغاثة الملهوف، مما جعل الصحابة رضي الله عنهم إذا حمي الوطيس واشتد البأس يحتمون به ﷺ، يقول علي رضي الله عنه: «كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ ـ اشتدت الحرب ـ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ فَما يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ»[2].

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ إِذَا فَزِعُوا بِاللَّيْلِ، حديث رقم: ٣٠٤٠، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب، حديث رقم: ٢٣٠٧.
(٢) مستدرك الحاكم، كتاب قسم الفيء، حديث رقم: ٢٦٣٣.

ومَن تأمَّل في وصايا الرسول ﷺ بعقله وقلبه أبصر فيها سماحة الإسلام في أسمى درجاتها وأرقى معانيها، وذلك حين قال ﷺ: «مَنِ اسْتَعَاذَ بالله فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بالله فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[1]، فقد علَّمنا نبينا ﷺ كيف نتعامل بالأخلاق الكريمة، والقيم النبيلة التي تقاس بها الرجال، وتوزن بها العقول، وتتميز بها شخصية المسلم عن غيره.

وجدير بالذكر أن تقديم العون للناس سلوكٌ إسلاميٌّ عظيم، وخلق رفيع، جعله الإسلام من أعظم أعمال الخير التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون، فلما سُئل ﷺ: أي النَّاس أَحَبُّ إِلَى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ قال ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ

(١)) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، حديث رقم: ١٦٧٢.

أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِد ـ يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ ـ شَهْرًا وَمَنَ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ»[1]، فالذي يقضي حوائج الناس ويسعى في قضاء مصالحهم أعظم أجرًا من المعتكف في بيوت الله ﷻ؛ فإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج والسعي في قضاء حوائج الناس دليل على قوة الإيمان بالله ﷻ.

وقد تكفل الله ﷻ لمن فرج كربة المكروب وأغاث الملهوف أن يفرج عنه كربة من كربات يوم القيامة، يقول ﷺ: «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ»[2]؛ بل إن النبي ﷺ عدَّها من الصدقات التي

(١) المعجم الكبير للطبراني، ١٢/ ٤٥٣، حديث رقم: ١٣٦٤٦.
(٢) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم: ٢٤٤٢، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨٠.

يجب على كل مسلم أن يسارع إليها؛ لينال أجرها وبرها وبركتها، فقال ﷺ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ الله، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ» قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»[1].

ومن الشهامة والمروءة ما أمرنا به النبي ﷺ وما تربينا ونشأنا عليه من ضرورة احترام الكبير، وإكرام الصغير، ورعاية الضعيف، والمريض، واليتيم، وحسن معاملة النساء، وكذلك إرشاد الضال، وإغاثة الملهوف، وتقديم العون لكل من يحتاج إليه، ومراعاة الآداب العامة في الطرقات والمنتديات العامة ووسائل المواصلات، إذ يفسح الصغير للكبير ويجلسه ويكرمه، ويعني الناس باحترام المرأة وتقديرها، ومراعاة ذوي الاحتياجات الخاصة والمسابقة في إكرامهم، فإن النبي ﷺ حثَّنا على احترام الكبير وتوقيره، فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، بَابٌ: عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، حديث رقم: ١٤٤٥.

يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»[1]، وأخبرنا ﷺ بفضل رعاية الضعفاء فقال: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَة وَالْمِسْكِين كَالْمُجَاهِد فِي سَبِيلِ الله، أَو الْقَائِم اللَّيْلَ الصَّائِم النَّهَارَ»[2]، وجعل إغاثة الملهوف وإرشاد الضال من حقوق الطريق، فحين نهى ﷺ أصحابه عن الجلوس في الطرقات إلا إذا أعطوا الطريق حقه، بيَّن لهم أن من حق الطريق: إغاثة الملهوف، وإرشاد الضال، فقال: «وَتُغِيثُوا الْمَلْهُوفَ، وَتَهْدُوا الضَّالَّ»[3]، وفي رواية: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْمٍ جُلُوسٍ فِي الطَّرِيق، قَالَ: «إِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ فَاعِلِينَ، فَاهْدُوا السَّبِيلَ، وَرُدُّوا السَّلَامَ، وَأَغِيثُوا الْمَظْلُومَ»[4].

ولقد كان لهذه الصفات العظيمة والقيم الراقية في حياة النبي ﷺ أثرها الطيب في تربية أصحابه الكرام (رضوان الله تعالى عليهم)، فضربوا أروع الأمثلة في تطبيق وإظهار هذه القيم النبيلة، من الشهامة والنجدة وإغاثة الملهوفين

(١) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، حديث رقم: ١٩١٩.
(٢) صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، حديث رقم: ٥٣٥٣.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الجلوس في الطرقات، حديث رقم: ٤٨١٧.
(٤) سنن الترمذي، أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في الجالس على الطريق، حديث رقم: ٢٧٢٦.

وغيرهـا، ومن ذلك ما رواه الشـيخان عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَـلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِه، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْـدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَـلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَـتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّـى قُلْنَ كُلُّهُـنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّـذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟»، فَقَـامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُـولَ الله، فَانْطَلَقَ بِـهِ إِلَى رَحْلِه، فَقَالَ لامْرَأَتِـه: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِـمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ، وَأَرِيه أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى الـسِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيـه، قَالَ: فَقَعَـدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَـلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»[1].

إن الشـهامة والنجـدة وإغاثـة الملهوف هـي عنوان الإيجابية في حياة الإنسان، الإيجابية التي تعني الاستجابة والتلبيـة السريعـة لقضـاء حوائـج الناس ابتغـاء مرضاة

(١) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، بَابُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَفَضْلِ إِيثَارِهِ، حديث رقم: ٢٠٥٤.

الله ﷻ، ومن ثم يتحقق قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

وجدير بالذكر أن للشهامة والنجدة وإغاثة الملهوف ثمرات وفوائد متعددة، فهي من أعظم العبادات التي يتقرب بها الإنسان إلى الله ﷻ، فينال رضا الله ﷻ بإغاثة إخوانه ومَدِّ يد المساعدة لهم، فإذا أغاث الإنسان أخاه رزقه الله ﷻ بمن يغيثه عند شدته، إضافة إلى أنها تنجي صاحبها من كرب يوم القيامة.

وإذا كان التخلق بهذه الأخلاق الكريمة هو شأن العظماء، فإن تركها والتخلي عنها هو عنوان لقسوة القلب والأنانية وحبِّ الذَّات، وتقديم المصلحة الخاصَّة على العامة، وعدم مشاركة الغير آلامهم، كما أنها تؤكد على التنصُّل من المسئولية والخسة التي لا تليق بإنسان سليم

(١) [سورة التوبة، الآية ٧١].

الطبــع نقي السريرة، وهذا ما حذر منه نبينا ﷺ حين قال: «مَا من امْــرِئ يَخْذُلُ امْرَءًا مُسْــلمًا في مَوْضِع تُنْتَهَكُ فيه حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيه مِــنْ عِرْضه، إلَّا خَذَلَهُ الله في مَوْطِنٍ يُحبُّ فِيه نُصْرَتَهُ، وَمَا من امْرئ يَنْصُرُ مُسْــلمًا في مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِــنْ عِرْضه وَيُنْتَهَكُ فيه مِــنْ حُرْمَته إلَّا نَصَرَهُ الله ﷻ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ»(١).

❁ ❁ ❁

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، رقم: ٤٨٨٤.

حفظ الجميل

إن الوفاء وحفظ الجميل من القيم الإنسانية والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها ديننا الحنيف، وقد مدح اللهُ ﷻ الأنبياء عليهم السلام لاتصافهم بهذا الخلق النبيل، حيث يقول ﷻ في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[1]، ويقول ﷻ في شأن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[2].

ولا شك أنَّ أولى الناس بالوفاء وحفظ الجميل لهما الوالدان، فهما أصحاب الفضل التام على أبنائهما، وقد أمر الله ﷻ بالإحسان إلى الوالدين، والوفاء لهما، حيث يقول ﷻ مذكِّرًا الأبناء بجميل آبائهم بعدما بلغ الآباء مرحلة الكِبَر والضعف-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ

(١) [سورة النجم، الآية ٣٧].
(٢) [سورة مريم، الآية ١٤].

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1]، كما يتصل الوفاء للوالدين وحفظ الجميل لهما بعد موتهما، حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ أَبَرَّ البِرِّ صِلَةُ الوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ»[2].

ومن أرقى صور الوفاء: الوفاء بين الزوجين بأداء الحقوق، وحسن العشرة، وحفظ المعروف، حيث يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]، ويقول ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[4].

والمتأمل في حياة نبينا ﷺ يرى أنَّه المثل الأعلى في الوفاء لأهله، ومن ذلك ما كان لزوجته السيدة خديجة رضي الله عنها،

(١) [سورة الإسراء، الآيتان ٢٣، ٢٤].
(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرجل أهل ود أبيه، حديث رقم: ٢٥٥٢.
(٣) [سورة الروم، الآية ٢١].
(٤) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، حديث رقم: ١٤٦٨.

من حفظ جميلها في مواساته ونصرته ﷺ، فقد ظل نبينا ﷺ وفيًّا لذكراها حتى بعد موتها، فكان يكثر الثناء عليها، والاستغفار لها، وإكرام صديقاتها، فقد جَاءَتْ عَجُوزٌ إلى النَّبي ﷺ فأحسن ﷺ استقبالها، وأكرمها، فسألت السيدةُ عائشة رضي الله عنها نبيَّنا ﷺ عن ذلك، فقال لها: «إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ»[1].

ومن صور الوفاء: الوفاء لأصحاب الفضل، ويتجلَّى ذلك في موقف نبينا ﷺ حين طيَّب خاطر الأنصار بعد قسمة الغنائم يوم حنين قائلاً لهم: «فَوَالذي نَفْسُ مُحَمَّد بِيَده لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الأَنْصَار، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَت الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَار، اللهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَار، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاء الأَنْصَار»[2]، وقال ﷺ في حق الأنصار: «أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ،

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كِتَابُ الإِيمَانِ، حديث رقم: ٤٠.
(٢) مسند أحمد، ١٨/ ٢٥٣، حديث رقم: ١١٧٣٠.

وَبَقِيَ الَّـذي لَهُمْ، فَاقْبَلُـوا مِنْ مُحْسِـنهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسيئِهِمْ»[1]، وكان ﷺ يقول عن أبي بكر رضي الله عنه: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لاَ تَبْكَ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِه وَمَالِه أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ»[2].

بـل إن خلق الوفاء مع أصحاب الفضل يمتد ليشـمل المخالفين، وذلك بحفظ الجميل لهم، ومجازاتهم عليه، ويتجـلَّى ذلك حـين تذكَّر نبيُّنـا ﷺ يوم بـدر المُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ، ذلك الرجل الذي دخـل النبيُّ ﷺ مكة في جواره بعد عودته من رحلة الطائف، فيقول ﷺ: «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْـنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَـؤُلاَءِ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[3] يقصد: أُسَارَى بَدر من المشركين.

ومن صـور الوفاء وحفـظ الجميل: الوفـاء للمعلِّم، ويكـون ذلك باحترامه وتوقـيره، والدعاء له، حيث يقول

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «اقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»، حديث رقم: ٣٧٩٩.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، بَابُ الخَوْخَةِ وَالمَمَرِّ فِي المَسْجِدِ، حديث رقم: ٤٦٦.
(٣) صحيح البخاري، كِتَابُ فَرْضِ الخُمُسِ، بَابُ مَا مَنَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الأُسَارَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَمِّسَ، حديث رقم: ٣١٣٩.

الإمام أبو حنيفة: «ما صليتُ منذ مات شيخي حماد، إلَّا استغفرتُ له مع والدي، وإني لأستغفر لمن تعلَّمت منه علمًا أو علَّمته علمًا»[1]، ويقول الإمام أحمد: «مَا صَلَّيْتُ صَلَاةً مُنْذُ كَذَا سَنَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَدْعُو لِلشَّافِعِيِّ»[2].

إن من أعظم صور الوفاء وحفظ الجميل: الوفاء للوطن، فلا شك أنَّه من شيم أهل المروءة والنُّبل، ويتجلَّى ذلك الخلق النبيل حينما وقف نبيُّنا ﷺ ليلة الهجرة، ونظر إلى مكة بعد إيذاء أهلها له ولأصحابه وتكذيبهم له، وقال: «عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إلى اللهِ ﷻ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[3]، وحين دعا ﷺ للمدينة، فقال: «اللهمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا»[4].

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ١٥/ ٤٤٤، ط دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، ٩/ ٨٩، السعادة – القاهرة، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

(٣) مسند أحمد، ٣١/ ١٣، حديث رقم: ١٨٧١٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فَضَائِلِ المَدِينَةِ، بَابُ كَرَاهِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ تُعْرَى المَدِينَةُ، حديث رقم: ١٨٨٩.

فـما أحوجنـا إلى أن نتحـلَّى بخلـق الوفـاء وحفـظ الجميـل، فهـو خلق عظيم، به تسـمو النفـوس، ويكمل الإيمان، حيث يقـول نبينا ﷺ: «خِيَارُ عِبَـادِ الله عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُوفُونَ الْمُطيبُونَ»[1].

* * *

(١) مسند أحمد، ٤٣/ ٣٣٧، حديث رقم: ٢٦٣١٢.

الموضوع

تقديم	٥
الأخلاق أساس الحضارات الراقية	٩
مكارم الأخلاق في الرسالة المحمدية	٢١
يقظة الضمير	٤١
الحلم والأناة	٥٣
المواساة في القرآن الكريم	٦٣
الشهامة والمروءة والتضحية	٧٥
العدل وأثره في استقرار المجتمع	٨٥
النجدة وإغاثة الملهوف	٩٧
حفظ الجميل	١٠٩

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشرف على المشروعات الثقافية

مروان حماد

متابعة

فريال فؤاد

المراجعة اللغوية

د.حسن أحمد خليل

سيد عبد المنعم

الإخراج الفني

أحمد طه محمود

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٦٦٨/ ٢٠٢٣

ISBN 978-977-91-4139-8